سياحة في الروسيا



رشاد بك

سياحة في الروسيا

سياحة في الروسيا

تأليف
رشاد بك



سياحة في الروسيا

رشاد بك

رقم إيداع ٢٠١٤ / ٧٧٣٥
تدمك: ٨ ٧٨٧ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ +   **فاكس:** ٣٥٣٦٥٨٥٣ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

المحتويات

١- من مصر إلى أودسا ٧
٢- من أودسا إلى تفليس ١١
٣- من تفليس إلى بلاد الشراكسة ١٧
٤- في بلاد الشركس والداغستان ٢٣
٥- القوقاز ٢٧
٦- في بلاد التاتار وفي بطرسبرج ٣١
٧- آخر السياحة ٤١
٨- ذيل السياحة ٤٥

الفصل الأول

من مصر إلى أودسا

هل أتاك حديث روسيا وقريمها؟ وقافقاسية وزعيمها على بُعْد الدار وشَطِّ المزار؟ وإن تَعْجَب فَعَجَب قَوْلُهُم، أهذه بلاد تستحق أن يُرْحَل إليها؟ وماذا بها من المشوِّقات والمُرَغِّبات حتى يَتَجَشَّمَ المرء من أجْلها عناء السفر ويَقْطَعَ البعيد من المسافات.

أجَلْ، إنَّ بلاد القياصرة جديرة بأن تُشَدَّ إليها الرحال؛ لأنها في الواقع لا تَقِلُّ عن غيرها رونقًا ونظامًا ولا أَمْنًا وسلامًا، ولأن بها ما بالمَمَالِكِ الأخرى من المناظر الطبيعية ومعالم الحضارة والمدنية، ما يَسْتَفِزُّ السائح لمشاهدة آثارها الجميلة وزيارة معاهدها الجليلة، ويَجْعَله لا يَمَلُّ من الإقامة بين ربوعها الناضرة وغياضها الزاهرة، أو يأسف بحال من الأحوال على ما يَصْرِفه فيها من الوقت والمال.

ولكل أُمَّة عادات أهلية وتقاليد دينية وقيود رسمية وقواعد نظامية، يجِبُ على الغريب احترامها ولو كانت مخالِفة لعادات وتقاليد قوْمِه. كما أنَّ لكل شَخْص أخلاقًا وطباعًا يَنْبَغِي للغير عَدَمُ التعرض له بها، ولو كانت مما لا يلائم أخلاقه وطباعه.

تلك سُنَّة دَرَجَ الناس عليها من القدم تَلَطُّفًا منهم وتَأَدُّبًا في حق بعضهم بعضًا، ومنعًا لما عسى أن يَحْدُث من عَدَمِ احترام الأخلاق والعادات من الأحقاد والمشاحنات والضغائن والعداوات. إذ من المُحَال أن يكون جميع الناس على مَشْرَب واحد وأخلاق وطباع واحدة؛ نظرًا لتَبَايُن الأمزجة والجِبِلَّات، وتأثير قوانين الوراثة والبيئة في الشخص وتَبَاعُد الأقاليم والمناطق، واختلاف اللغات والأجناس والديانات. وقصارى القول:

إن جِئْتَ أرضًا أَهْلُها كُلُّهُم عُورٌ فَغَمِّضْ عَيْنَكَ الواحدة

إذَا تَمَهَّدَ هذا وَجَبَ عليك إن قَصَدْتَ السفر إلى روسيا أن تَعْرِف قَبْل كل شيء نظامات الدخول فيها والخروج منها، وأن تَرْضَخ إليها ولو أنها غريبة في بابها، وفيها من الشذوذ ما لا يُوَافِق رُوح العصر بالمَرة. فَأَوَّل ما تَعْمَله أن تَسْتَحْصِل على باسبور كالعادة، ثم تؤَشِّر عليه من قونصلاتو الروسيا بعد أن تَدْفَع لها رسمًا قَدْره ٢٤ قرشًا، وبِغَيْر هذه الإشارة يستحيل عليك أن تَطَأَ أرض روسيا أيًّا كانت صِفَتُك، ومَهْمَا عَلَتْ في الهيئة الاجتماعية مَنْزِلَتُك. على أنَّ الباخرة نَفْسَها تَجْمَع الجوازات من رُكَّابها قبل السفر من الأستانة إلى أودسا، وإن وُجِدَ منهم مَن لا جواز له أو كان جَوَازُهُ غَيْر مُؤَشَّر عليه من القنصل أَنْزَلَتْه حالًا إلى البر ولم تَسْمَح له بالسفر، حتى لو كان دافعًا للأجرة بتمامها، وإذا فُرِضَ أنه سَافَرَ خِلْسَة رَدُّوه عند وصوله إلى أودسا مثلًا مِنْ حيث أتى ولَمْ يَقْبَلُوا فيه أدنى شفاعة.

ومتى وَصَلَت السفينة إلى أودسا يَصْعَد البوليس إليها لفحص الجوازات المجموعة مِنْ قَبْل فَحْصًا دقيقًا، فإن وَجَدَها مُسْتَوْفِيَة للشرائط القانونية صَرَّحَ لأصحابها بالنزول إلى البر وإلا فَلَا.

وفي اللوكاندة لا يَكْتَفُون ببطاقة الزيارة، بل يطالبونك بالباسبور ليقيدوا اسمك في دفاترهم مِن واقِعِهِ، وليرسلوه بعد ذلك إلى بوليس المدينة لِيَعْرِف مَنْ أنت وأين أنت، وهو بَعْد أن يُسَجِّله عنده يَرُدُّه إليك ويَأخُذ على ذلك رَسْمًا تُحَاسِبك عليه اللوكاندة عند مبارحتها. ولو انْتَقَلْتَ مِن لوكاندة إلى أخرى في نَفْس البلد طالبوك بالباسبور أيضًا وأَرْسَلُوه إلى البوليس مرة أخرى، وهكذا يجري الحال على هذا المنوال في كل بلد تَحُلُّه من بلاد الروسيا.

وعند الخروج من الروسيا يجب حتمًا التأشير على الباسبور من البوليس قَبْل السفر ببعض أيام، وفي نظير ذلك تَدْفَع رَسْمًا لا يَقِلُّ عن رَسْم الدخول، وَعَلَيْك بعْد ذلك أن تَمُرَّ يوم السفر على بوليس الميناء لِيَتَحَقَّقَ من هذه الإشارة ويُقَيِّد اسمك عنده، وبغير ذلك لا يُمْكِنك أبدًا الركوب في الباخرة والخروج من الروسيا.

ولَيْسَت هذه القيود قاصرة على الأجانب، بَلْ هي شاملة لنفس رعايا الروسيا، ولكن ذلك كله لا يَنْبَغِي أن يُقْعِد هِمَّتَكَ ويُثْنِي عزيمتك عن السفر إلى هاتيك البلاد الجميلة، للوقوف على درجة مدنِيَّتها ومعرفة حقيقة قُوَّتها وموارد غِناها وثروتها، فإنك متى دَخَلْتَها تَمَتَّعْتَ فيها بكل حرية كما لو كُنْتَ في فرنسا أو إنكلترا، وذَهَبَ عنك تأثير الباسبور وقيوده.

أَبْحَرَتْ بنا الباخرة من سكندرية في يوم من مايو رَقَّ نسيمه وصفا أديمه، ولكنها لسوء الحظ لم تَلْبَث أن سطا عليها الضباب في غداة ذلك اليوم فحَجَبَهَا عن الأنظار، حتى خِلْنا أننا في المحيط الأطلانطي أو تحت جوٍّ لوندرة في زمن الشتاء، ولَمْ نَعُد نُبْصِر شيئًا، فأخَذَت الباخرة تستجير بكثرة الصفير والشهيق والزفير لكي تَحِيد عن الطريق البواخر القادمة عليها، ولا تَتَصَادَم معها إذا سَمِعَتْ نعيقها وصُمَّتْ آذانها من ذلك النعير.

وفي اليوم الثالث وَصَلْنا إلى بيرية مينا أَتِينا بَعْد سفر ٤٠ ساعة من سكندرية، وفي الرابع إلى إزمير وبينها وبين بيرية ٢٠ ساعة، وقد سبق لنا أن قُلْنا بعض الشيء عن هذه المدن الثلاث في رحلتنا التي نشرناها عن المجر ورومانيا.

ولما دَخَلْنا مينا إزمير كانت إحدى البواخر اليونانية قادمة من جهة البلد، فَمَسَّهَا لَغَم فانشقت وحَصَلَ فيها دَوِيٌّ عظيم وتَصَاعَدَ منها دخان ولهيب، وتَطَايَرَ أَكْثر رُكَّابها إلى الجو فتَمَزَّقوا إربًا إربًا على مرأى منا، ويا لهول هذا المنظر، ثم هوى الجميع إلى قاع البحر، فاستولت الكآبة علينا وانْقَلَبَ سُرُورُنا إلى أحزان، وكَثُر عويل النساء والصبيان، وكان من ضِمْن السيدات فتاة روسية ذات جمال فَتَّان تُحَاكِي البدر في ليلة النصف من شعبان، فكأنما هي حورية من حور الجنان أو مَلَك من ملائكة الرحمن:

أَصَمُّ إذا نُودِيتُ باسْمي وإنني   إذا قِيلَ لي يا عَبْدَها لَسَمِيعُ

فَهَالَهَا الأمر جدًّا حتى غابت عن الصواب وَعَلَتْ مُحَيَّاها صفرة الموت، ولكن — ولله الحمد — قَدْ أَفَاقَتْ بَعْد قليل من غشيتها وعادت إلى بهجتها الأولى ونَضْرَتها، فأخذت تَلْعَن الحرب ورجالها وتَذُمُّهُم بكل لسان ولو كانوا من أبناء جِلْدتها.

وقد أَقَمْنَا في المينا ثلاثة أيام، ولم يَرْضَ الربان بالسفر إلا بعد أن أَخَذَ على ضُبَّاطها تَعَهُّدًا بالكتابة بسلامة الطريق وخُلُوِّها من الخطر، فسارت بنا السفينة بعد ذلك باسم الله مجراها قاصدة القسطنطينية. ولما اقْتَرَبَتْ من محل الحادثة كان الكل وُقُوفًا على ظَهْرها يُصْعِدون الزفرات ويُرَدِّدون الحسرات ويَنْدُبون سوء طالع أولئك التعساء، وما لاقوه بين طرفة عين وانْتِبَاهَتِهَا من المخاطر والمُهْلِكات، فتبًّا لدار لا يَدُوم نعيمها، وهيهات أن يَصْفو الدهر لأحد فيها في جميع الأوقات.

وفي الطريق مَرَّت الباخرة على متلين وتسمى بالتركية مدللي، وكانت تسمى قديمًا أليبسوس، وقد اغتصبها الأروام من سكانها الأصليين بدعوى أنهم أقاموا بها ردحًا من الزمان قبل حَرْب تروادة، وفيها نَبَغَ جماعة من الشعراء والفلاسفة والمؤرخين، وقد وَقَعَتْ في قبضة العجم مرتين، واشترك أهلها مع زركيس ملك العجم في غارته الشعواء على بلاد اليونان ولكنهم تَخَلَّوْا عنه لَمَّا فَشِلَ في الأمر ولم يَنْجَحْ، وانضموا إلى اليونان، وهكذا الدنيا مع الغالب من قديم الزمان:

والناس مَنْ يَلْقَ خيرًا قائلون له ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

فكم قَضَتْ عليهم أحوالهم المعاشية بالرياء والمداراة والتملق والنفاق والمداهنة والمصانعة والمداجاة، وكلها على الأكثر أمور تَصَنُّعية وليست صادرة دائمًا عن عواطف حقيقية.

وقد استولى الرومان أيضًا على هذه الجزيرة، وأَخَذَهَا الأتراك في زَمَن السلطان محمد الفاتح.

وسُمِّيَتْ متلين باسم عاصمتها، وكان ذلك في زمن البيزنتيين، وهي من أهم وأكبر جُزُر البحر المتوسط، وعدد سكانها ١٣٠ ألف نفس أكثرهم روم. وهواء الجزيرة في غاية الاعتدال حتى في فصل الشتاء، وبها ثلاثة ينابيع معدنية، ومن أهم حاصلاتها الزيت والزيتون.

ولم تقف الباخرة بها بل استمرت في سيرها، وبَعْد خمس ساعات اجتازت الدردنيل ثم دَخَلَتْ في بحر مرمرة، وأخيرًا وَصَلَتْ إلى القسطنطينية، وأنت الآن تعرفها معرفةَ المستفيد مما نشرناه لك عنها وعن أختها بورصة، وما عَهْد ذلك ببعيد.

ومن إزمير إلى الأستانة ٢٤ ساعة، وبعد أن مَكَثَتْ بها الباخرة يومين أو ثلاثة سافَرَتْ إلى الروسيا في البوسفور ثم في البحر الأسود، وهذا البحر يكون هادئًا على الغالب في الربيع وفي الصيف، أما في الشتاء فيهيج، وتكون الملاحة فيه وقتئذ محفوفة بالمصاعب، ولا يَتَجَلَّد منه في هذا الفصل إلا الجهات القريبة من سواحله ولكن لمدة قصيرة، وفي الخريف يكثر فيه الضَّباب والزوابع خصوصًا في آخر أكتوبر.

وبعد سَفَرِ نحو ثلاثين ساعة وصلت الباخرة إلى أودسا.

الفصل الثاني

من أودسا إلى تفليس

أودسا من أجمل مدن الروسيا وأبهاها، وكانت في الأصل قرية تركية صغيرة بها قلعة تعرف بقلعة حاجي بك، استولى عليها رجل إسبانيولي اسمه ديريباس انتظم في سلك البحرية الروسية في سنة ١٧٦٩، وَوَصَلَ فيها إلى رتبة أميرال، وهو أول من أَسَّسَ أودسا وكان ذلك في عهد الإمبراطورة الكبيرة كاترينة الثانية، ثم جاء بعده رجلان فرنسويان، ودخلا في خدمة الحكومة الروسية الواحد بعد الآخر وهما الدوك دوريشليو والكونت دولانجرون، فَوَسَّعَ كلاهما دائرة المدينة وزاد في تَقَدُّمها وعُمْرانها، وما زالت التجارة فيها كل يوم في ازدياد حتى أصبَحَت الآن تُعَدُّ مرسيليا الروسيا.

وأول مَن اسْتَعْمَرَهَا قوم من الأروام واليهود والبلغار سعيًا وراء الرزق والكسب، واسمها مُشْتَقٌّ من اسم مدينة يونانية قديمة تُدْعَى أوديسوس (أي مدينة عولص المذكورة في وقائع تلماك)، كانت بالقرب من هذه الجهة وذُكِرَتْ في تاريخ حَرْب تروادة.

وقد أُطْلِق اسم ديريباس على شارع من أهم شوارع أودسا كما سُمِّيَت المدرسة الإعدادية فيها باسمه، وأُطْلِقَ اسم لانجرون على الجهة الموجودة فيها حمامات البحر. وفي أودسا جملة تماثيل منها تمثال لكاترينة وآخر لريشليو، وفيها شارع لطيف مُشْرِف على البحر اسمه بولفارنيقولا، وبها جملة لوكاندات منها لوكاندة لوندرة وسان بطرسبورغ وأوروبا وسافواي وباساج وبريستول، وفيها عدة بنوكة وتياترو ومتحف وجنينة كبيرة، وأكبر قهاويها روبينا وفانكوبي، وفي ضواحيها حمامات وحْل مشهورة مفيدة للصحة. وعدد سكان أودسا ٤٠٠ ألف نفس.

وفي سنة ١٨١٢ ظَهَرَ الطاعون في أودسا للمرة الأولى، وكاد يُخْرِبها عن آخرها حتى إنَّ مَنْ مات فيها بهذا الوباء لا يَقِلُّ عن ١٣ ألف نفس، وفي سنة ١٨٥٤ حاصرتها أساطيل الدول المتحالفة في حرب القريم وأَطْلَقَتْ عليها المدافع، وأَهْلُها خليط من

الروس والأروام واليهود، ومن الأروام من أَثْرَى فيها مِثْل بيت رالي الذي أَصْبَحَتْ ثروته لا تقل عن أربعين مليونًا من الروبلات (الروبل قطعة بعشرة وكسور) وعلى بُعْد ٨٠ ميلًا منها لجهة الأستانة جزيرة جبلية صغيرة اسمها فيدونيسي أي جزيرة الثعابين، كفاك الله شَرَّها.

ومن أودسا سافَرْت إلى القريم المشهورة باعتدال هوائها وجمال مناظرها، وكان السفر على باخرة في البحر الأسود من بواخر روسكي باراخوت؛ لأنها أفضل وأنظف وأجمل من بواخر شركة روسيان باراخوت، خصوصًا إذا كانت من وابورات الطبقة الأولى، فسارت بنا الباخرة تَشُقُّ بحيزومها عباب الماء إلى أن رَسَتْ في الغداة على أوباتوريا أول مواني القريم، ويسميها التتار كوزلاوه والروس كوزلوف، وكانت فيما مضى من الزمان سوقًا للنخاسة تُبَاع فيه المماليك والجَوَار البيض.

وقد امْتَلَكَها الأتراك في سنة ١٤٧٨ والروس في سنة ١٧٨٤، وبها جامع جميل بُنِيَ في سنة ١٥٥٢ على مثال جامع أيا صوفيا بالأستانة، وعدد سكانها ٢٥ ألف نفس وهم روس وتتار وأروام ويهود، وفيها ملاحة شهيرة، وعلى بُعْد فرستين منها حمامات وحْل صحية في بُحَيرة مونياك، و١٨ فرست حمامات وحْل أخرى في بُحَيرة ساك (الفرست مقياس روسي يساوي ١٠٣٥ مترًا). ويَبْتَدِئ موسم هذه الحمامات في ٢٥ مايو وينتهي في آخر أغسطس، وفي هذه المدة يَقْصِدُها كثير من المرضى والمستشْفِين.

وعلى بُعْد ٦٣ فرست من أوباتوريا توجد مدينة سنفيروبول عاصمة القريم الجديدة، وهي مدينة لطيفة وبها ٦٠ ألف نفْس.

وبعد سَفَر نحو خمس ساعات من أوباتوريا وَصَلَت الباخرة إلى سواسطابول، وهي الآن مدينة كبيرة ذات شوارع عظيمة ومَبَانٍ فخيمة، وبها النور الكهربائي، وفيها يَسِير التِّرام في كل مكان، وفي ميناها أسطول البحر الأسود وبها حامية روسية كبيرة، حتى إن القادم عليها لا يَتَصَوَّر لأول وهلة إلا أَنَّ كل أهلها ضُبَّاط وعساكر، ومع كَوْنها مدينة تجارية فإنها تُعَدُّ مدينة حربية من الدرجة الأولى، وهي متصلة مع كل الروسيا بخطوط حديدية وفيها تماثيل للضباط الذين امتازوا في الحروب، بَرِّيِّين كانوا أو بَحْرِيِّين، وتذكارات حربية أشبه بتذكارات واترلو في بلجيكا. ومِنْ أَلْطَف منازهها على البحر الجنينة البلدية وفيها تَصْدح الموسيقى في كل يوم ويَقْصِدها الضباط بكثرة، ولكن لا يجوز للعساكر الدخول فيها.

ومن ضِمْن شوارعها شارع مُهِم اسمه البولفار التاريخي، فيه جنينة كبيرة على جهة مرتفعة موجودة بها بناية مستديرة في غاية العظم، مرسومة في دائرها من

الداخل وقائع حرب القريم وصور العساكر الذين اشتركوا فيها من تركيَّة وفرنساوية وإنكليزية وغيرها، وبها معدات الدفاع وكثير من أدوات الاستحكامات والمهمات الحربية، وما أشبه ذلك.

في شارع آخر بالقرب من مدخل المينا متحف تاريخي في غاية الأهمية، يَخْتَصُّ بحصار سواسطابول، وكل ما اسْتُعْمِلَ فيها من مدافع وأسلحة وخُرُط وغير ذلك، وقد اشْتَهَرَتْ سواسطابول بهذا الحصار سنتي ١٨٥٤ و١٨٥٥، وفيه خَرِبَتْ كلها تقريبًا ولكنها لم تَلْبَثْ أن نَهَضَتْ مِنْ كَبْوَتِها وقامَتْ بسرعة عظيمة من عَثْرَتِها، وعدد سكانها الآن ٥٠ ألف نفس الأكثرية نصارى والأقلية تتار وأروام ويهود، وفيها بعض لوكاندات أشهرها لوكاندة كيست على البحر والجران أوتيل، وعلى بعد ١٠ كيلومترات منها دير مار جرجس وله الآن ألف سنة ومَوْقِعه جميل للغاية.

ومن سواسطابول إلى باغجة سراي عاصمة القريم القديمة ٤٣ كيلومترًا في السكة الحديدية، وهي مدينة صغيرة بها جملة جوامع وبساتين، ولكن ليس فيها شيء من آثار الرقي الحديث، فلا طرق ممهدة ولا تراماواي ولا نور كهربائي ولا لوكاندات معتبرة. وبها قصر خانات التتار، بُنِيَ في القرن السابع عشر، وعلى باب جامِعِه مكتوبة هذه العبارة: سلامت كراي خان ابن الحاج سليم كراي خان سنة ١١٥٥، وبحوش القصر حنفية مكتوب عليها: قبلان كراي خان ابن الحاج سليم كراي خان — غفر الله لهما ولوالديهما — سنة ١١٦٢، وعلى هذه الحنفية هذه الآية الكريمة: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، ومرسوم بها شجرتا ورد وثلاثة أصناف من الفاكهة. وفي الحوش حنفية أخرى مكتوب عليها: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾، وبالدور الأعلى قاعة الاستقبال مكتوبة على جدرانها قصيدة فارسية ومرسوم عليها أطباق فاكهة متنوعة، وهذه القاعة هي أجمل ما في القصر، وبالدور الأرضي قاعة سقفها من أجمل ما صَنَعَ الصُّناع، وعلى بابها منقوشة هذه العبارة: باب ديوان سلامت كراي خان ابن الحاج سليم كراي خان سنة ١١٥٦، وبالقصر باب السلسبيل مكتوب عليه صاحب هذه الديار سلطان الأعظم الأكرم منكلي كراي خان ... إلخ، وبداخل القصر جنينة وبخارجه جنينة، وهذه الأخيرة هي الآن جنينة البلدية التي يتنزه فيها الناس، وفيها الجامع السلطاني وكانت العشا تُؤَذَّن فيه وقت زياتي للبلد في مايو في منتصف الساعة العاشرة الإفرنكية.

وفي باغجة سراي جريدة تنشر باللغة التركية لصاحبها إسماعيل بك غصبر نسكي اسمها ترجمان، وبها مدرسة للبنات تُدِيرُها كريمته، وفيها يَتَعَلَّمْن التركية والروسية

ومبادئ اللغة العربية والعقيدة الإسلامية والحساب والجغرافيا وعِلْم الصحة وعِلْم تدبير المنزل والأشغال اليدوية، ومن البنات مَنْ تَحْفَظْن القرآن كله.

وعدد سكان باغجة سراي ١٨ ألف نفس، منهم ١٤ ألف من التتار وثلاثة آلاف مسيحي وألف يهودي.

ومن سواسطابول إلى يالطة ثلاث طرق: البحر والأوتوموبيل وسكة الحديد، والأول جميل؛ لأن المسافر فيه يشاهد شاطئ القريم بجباله المختلفة الألوان، والثاني أجمل خصوصًا من ابتداء باب بايدار؛ لأنه كله مناظر لطيفة وجبال وأشجار، والثالث لا شيء فيه يَسْتَحِقُّ الذكر.

ويالطة هي من أجمل مدن الحمامات البحرية في القريم، وهواؤها في الصيف معتدل ونافع لأمراض الصدر، ويُسَمُّونها نيس الروسيا، وكل شوارعها ومبانيها على الطراز الحديث، وفيها جنينة بلدية لطيفة تصدح فيها الموسيقى يوميًّا، ومن أشهر لوكانداتها روسيا وفيلا إيلنا ومارينو، وعدد سكانها ٣٥ ألف نفس الأكثرية نصارى والأقلية مسلمون ويهود. ومن ضواحيها ليفاديا وفيها يُصَيِّف القيصر، وألوبكا وأوريان‌دا وغيرها من الجهات الخلوية الجميلة.

ومن يالطة سَافَرْتُ إلى باطوم، فمَرَّتْ الباخرة على جملة ثغور أهمها تيودوزي وكيرش آخر مواني القريم، وفي بوغاز كيرش هذه يَتَّصِل بحْر أزوف بالبحر الأسود.

فساحل القريم يبتدئ إذَنْ من أوباتوريا وينتهي في كيرش، وبعضه سهول وبعضه جبال، والمناظر الجبلية كلها في غاية الجمال. وأما ساحل القوقاز فيبتدئ من أنابا وينتهي في باطوم، وكله غابات وأشجار وجبال من أجمل ما يكون. ومن أهم ثغوره نوفور وسيسك، وهي مدينة كبيرة، وجاجري، وكلها غارقة في الأشجار والخضرة، وهي من أجمل المصايف، وعلى بعد ١٥ فرست منها جبل أتوس الجديد وبه دير أسسه في سنة ١٨٧٥ بعض رهبان جبل أتوس القديم، وسوخوم عاصمة مملكة أباظا (أبخازيا) وكلها فواكه وأزهار، وهواؤها في غاية الجودة، ومنها يرسل مقدار عظيم من الدخان إلى مصر، وفي ضواحيها آثار مدن قديمة وهياكل وقصور وقلاع ومعاقل، وعدد سكانها ٢٠ ألف نفس. أما سكان نفس مملكة أباظا فيَبْلُغون نصف مليون؛ ثلاثة أرباعهم مسلمون والباقي نصارى أورثوذكس، ومعظم سكان هذه المملكة المسلمين هاجروا إلى تركيا، ولم يَبْقَ في القوقاز سوى ٣٠ ألفًا، منهم ثمانية آلاف مِنْ ضِمْن سكان سوخوم، والباقون مُنْتَشِرون بينها وبين نوفوروسيسك على ساحل البحر الأسود وقبائلهم تُسَمَّى أونج.

ومن جاجري إلى باطوم يرى المسافر وهو على ظَهْر الباخرة جبالًا جميلة في ساحل القوقاز، ذات غابات وأشجار وقممها البالغ ارتفاعها ٢٥٠٠ متر مغطاة كلها بالثلج.

وبعد سفر ثلاثة أيام من يالطة وَصَلَت الباخرة أخيرًا إلى باطوم آخر مينا للروسيا على البحر الأسود، وبينها وبين أودسا ٥٦٣ ميلًا.

وباطوم كما أنها مدينة تجارية هي مدينة حربية، وقد وسَّعَها الروس وفتحوا فيها الشوارع وأناروها بالنور الكهربائي، وأنشأوا فيها على شاطئ البحر جنينة بلدية من الطراز الحديث كلها شوارع مستقيمة، وبها تصدح الموسيقى العسكرية كل يوم. وفي باطوم جنينة أخرى من زَمَن الترك في غاية اللطف على شاطئ بحيرة صغيرة، وقد سُمِّيَتْ هذه الجنينة الآن جنينة إسكندر، وهواء باطوم معتدل ولكن ماءها لا يزيل الصابون إلا بشق الأنفس، وفيها ثلاثة جوامع ومعامل للغاز مِلْك نوبيل الأسوجي صاحب الجوائز السنوية المشهورة، وإليها يأتي البترول من باكو الكائنة على بحر الخزر في مواسير محكمة تحت الأرض، وهي مسافة طويلة جدًّا يقطعها الإكسبريس الذي يقال له في الروسيا كورييسكي في نحو ٢٤ ساعة، ومن أهم معامل الغاز في باطوم أيضًا معامل روتشيلد المعروف ومعامل مانتاشيف الأرمني الروسي.

وعلى بُعْد ١٣ فرست من باطوم في السكة الحديد مزارع الشاي المشهورة في شكوي، وعدد سكان باطوم ٣٧ ألف نفس، وهم خليط من الروس والكرج والأرمن والترك والجركس. ومِنْ أحسن لوكانداتها الشرق والمنظر الجميل وفرنسا والأمبريال.

ومن باطوم سافَرْت بالسكة الحديدية إلى قوطايس وبورجوم وباكورياني في داخلية القوقاز، وهي وإن كانت بلادًا صغيرة لكنها تستحق الزيارة لجمال الطرق المُوصِلة إليها بالنظر لتَشَعُّب جبالها وكثرة أشجارها وتَعَدُّد مُنْعَطَفَاتها وجريان الأنهر والغدران فيها. وليس في قوطايس شيء يذكر سوى نهر ريون، وخَرِيرُه يُسْمَع له دَوِيٌّ شديد من بعيد، وفيها نزل فرنسا صاحبته امرأة من سويسرة لها في قوطايس ٣٠ سنة، وقد أثَّرت بها.

وبورجوم مدينة حمامات معدنية وبها نُهَيْر سريع الجريان شديد الخرير، وآخر أكبر منه، وماؤها العادي بالنسبة لإزالة الصابون مثل ماء باطوم. أما باكورياني نفسها فلا تستحق الإقامة بها لا يومًا ولا بعض يوم، وإنما الطريق إليها من بورجوم من أجمل ما تراه العين. ومن بورجوم طريق آخر في غاية البهجة والحسن إلى أباستومان، السفر فيه يكون في الأوتوموبيل، وأباستومان هذه من البلاد المشهورة باعتدال هوائها وجميل مناظرها.

ومن بورجوم سافرت إلى تفليس عاصمة القوقاز بالسكة الحديدية، وهي في منتصف الطريق بين باطوم وباكو أو بين البحر الأسود وبحر الخزر، ويَبْلغ ارتفاعها عن سطح البحر ٣٠٠ متر.

الفصل الثالث

من تفليس إلى بلاد الشراكسة

كانت تفليس في أوائل العصر المسيحي قرية حقيرة لا تُذْكَرُ، وفي القرن الخامس للميلاد عَثَرَ فيها بالصُّدفة المَلِكُ المُسَمَّى بالذئب السبع أثناء الصيد والقنص على عين ماء حارَّة تجري في الجبل، فاتَّخَذَهَا من ذلك الوقت عاصمة لَمْلَكَة الكرج، ونَقَلَ إليها تَخْت مُلْكِه من متسخيت العاصمة القديمة التي هي الآن بلدة صغيرة على بُعْد ساعة منها في السكة الحديدية، ولولا هذه العين لظَلَّتْ تفليس على حقارتها إلى الأبد، ولبَقِيَتْ مجهولة من الجميع، وما كان سَمِعَ بذكرها أحد، فالعين إذَنْ هي ولية نِعْمَتِها وينبوع عِزِّها وسعادتها.

وفي سنة ١٣٩٥ حَطَّمَهَا تيمور وجنوده، وأعملوا السيف والنار فيها، وذبحوا أهلها وأَسَرُوا النساء. وقد استولى العجم عليها وأقاموا بها زمنًا طويلًا، وفي سنة ١٨٠١ دانَتْ للروسيا وخَضَعَتْ نهائيًّا لحُكْمِها، وبعد ذلك أَخَذَتْ تَتَّسِعُ شيئًا فشيئًا حتى وَصَلَتْ إلى ما هي عليه الآن من الحضارة والتقدم والعمران، وتنقسم تفليس إلى قسمين:

القسم الأول: إفرنكي وكل شوارعه واسعة مستقيمة، ومِنْ أهمِّها شارع جالافانسكي وشارع ميخاييلوفسكي، وكلاهما مضاء بالكهرباء، وفي الشارع الأول منهما ديوان حاكم القوقاز ومصالح الحكومة والكنيسة الروسية الكبرى ومخازن التجارة والمتحف وجنينة إسكندر وتياترو الأوبرا، وهو في غاية الحسن والبهاء ويقال له عندهم كازوني تياتر، أي تياترو الحكومة، وأجمل ما فيه من الخارج واجهته الفارسية البناء، وعلى بُعْد قليل منه تياترو آخر كبير. وفي الشارع الثاني معظم المطاعم والألعاب والملاهي، وفي آخره جنينة المجتهد والناس يقصدونها كل يوم للفسحة والرياضة خصوصًا يوم الأحد، وبها تخت أرمن يُغَنُّون أغاني شجية وهم لابسون ملابس ملونة، وعلى رءوسهم لُفَافات حمراء مُطَرَّزة بالقصب، وآلات الطرب عندهم قانون

ودُف وكمنجتان وأورغن، وبالقرب من هذه الجنينة في الشارع قهوة كبيرة بها تخت من الكرج مُرَكَّب من رجال ونساء، وكلهم لابسون ملابس ملونة كذلك ومزركشة بالقصب، وألحانهم طلية وآلات الطرب في هذا التخت بيانو ومندولين ودف وآلات كبيرة من ذوات الأوتار تُسَمَّى كل واحدة منها عندهم جيتارة.

والقسم الثاني: أَهْلِيٌّ وبه جنينة النباتات والجوامع وأسواق البلدية، وتُعْرَف هناك بالبازار، ومن أعظمها سوق الميدان وسوق الأرمن وسوق الشيطان، وشوارع هذا القسم كأغلب شوارع البلاد الشرقية ضيقة ومُلْتَفَّة على بعضها، ومعْوَجَّة اعوجاج الثعبان.

وفي تفليس نهر صغير اسمه كوَّرا وآخر أصغر منه من نوع الغدير اسمه فيرًّا، وعلى الأول منهما تدور دواليب حديدية للطحن وغيره بقوة التيار، وبها محل اسمه فانتازيا يرقصون فيه ليلًا (عند الطلب) رقصًا أهليًّا، وهو على نوعين؛ أحدهما رَقْص اللزجين ويُسَمَّى ليزجينيكا، والثاني رَقْص الكرج ويُسَمَّى كينتا أوري. وفي تفليس تمثال واحد يُعْرَف بتمثال فارانسوف وكان حاكمًا على القوقاز، وبالقرب منه مطعم مشهور بالمأكولات الأهلية اسمه نادكوروايه.

ومآذن الجوامع في تفليس ليست عالية، فهي كمآذن تونس، وفي تفليس جملة فنادق أَعْظَمُها وأَجْمَلُها وأَحْسَنُها لوكاندة الشرق أمام سراي الحاكم، وهي لا تقل شيئًا عن فنادق الدرجة الأولى في أوروبا، ومطعمها فاخر للغاية، وكَفَاها ترتيبًا ونظافةً ونظامًا أنَّ مُدِيرَها فرنساويٌّ بخلاف اللوكاندات الأخرى في جنوب القوقاز فأكثرها بِيَدِ الكرج والأرمن، وهي أشبه شيء بلوكاندات الأروام في مصر.

وأمام لوكاندة الشرق خَلْف السراي جبل القديس داود، والهواء فيه منعش من الساعة السادسة مساء، والناس يَفِدُون إليه بكثرة خصوصًا في الليل، والصعود إليه يكون في فينيكولير (مصعد كهربائي)، والمسافة ١٠ دقائق ذهابًا وأقل منها إيابًا، وفي لمث الجبل من جهة البلد دير القديس داود.

ويُعَدُّ هذا الجبل من أجمل منازه تفليس وكله يُضَاءُ بالكهرباء، وفيه مطاعم وقهاوٍ وتخوت آلاتية كل ألحانها مُطْرِبَة شجية، ومن ضِمْن آلاتهم الرباب والمزمار والنقرية، ومن قمة الجبل ترى مناظر تفليس كلها، ولكن المنظر بالليل أجمل منه بالنهار؛ لأن البلد وقتئذ تكون كأنها مزينة بزينة عمومية في غاية التنسيق والإبداع بما يتلألأ فيها من الأنوار التي تُبْهَر بمحاسنها الأبصار.

وتكاد تفليس أن تكون محاطة بالجبال من جميع جهاتها، فالحر الذي تفر منه في مصر هو ملاقيك فيها. ولكن إذا اعْتَدَلَ الهواء أَنْعَشَ الأرواح والأجسام، وحبَّب إلى الغريب المُقَام بها بضعة أيام.

وفي تفليس حمام معدني مشهور اسمه حمام أوربيلياني، ومياهه تنفع للروماتيزم، وهي مستمَدَّة من تلك العين الحارة التي اكتشفها جلالة الملك الذئب السبع.

وفي تفليس ميدان فسيح على بُعْد قليل من سراي الحاكم اسمه ميدان إيريفان، تَتَوَزَّع منه خطوط الترامواي في البلد في كل مكان (وإيريفان هذه بلدة جهة قارص على مقربة من باطوم، وعندها أشميازين وهي مدينة مقدسة عند الأرمن وبها مقرُّ كَبِير الدِّين).

وفي تفليس بعض المسلمين مثل بابانوف وحصانوف من أرباب الملايين. وبوسطة باريس تصل إليها في ثمانية أيام مارة ببرلين وبطرسبورغ وموسكو وخاركوف وروستوف وباكو ثم تفليس. وعدد سكانها ٤٠٠ ألف نفْس منهم ٣٠ ألف روسي و١٨٠ ألف أرمني و١٠٠ ألف كورجي و٦٠ ألف مسلم وخمسة آلاف يهودي.

وفي تفليس متحف لطيف به جملة رايات قديمة استعملها الشيخ شامل بطل قافقاسية وزعيمها (وسيأتي الكلام عليه فيما بعد) في حروبه مع الروس مكتوب عليها «إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا — نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين يا محمد»، وفيه لوحة كبيرة مرسومة فيها صورة الشيخ شامل وبه رايات عجمية مكتوبة في أطرافها البسملة وبعض آيات قرآنية، وفي وسطها أسد العجم شاهرًا سيفه، وغير ذلك من الرايات والأعلام. وفي المتحف صُوَر ورسوم تُمَثِّل أغلب وقائع الشيخ شامل، وبه أسلحة قديمة ومدافع منقوشة عليها عبارات باللغة التركية واللغة العربية، ومن ضمن ما فيه لوحة كبيرة تمثل دخول الروس في تفليس وبه يفطات وأوراق قديمة مكتوبة بالتركي، وغير ذلك من نفائس الآثار.

ومن ضواحي تفليس كودجور ومانجليس، وهما مشهوران باعتدال الهواء حتى إنه يكاد أن لا يكون للحر أثر فيهما في زمن الصيف، والذهاب إليهما يكون بالأوتوموبيل من ميدان إيريفان.

وفي تفليس شركة فرنساوية لتسيير الأوتوموبيلات بينها وبين فلاديقافقاز في طريق بَهِج للغاية مسافته عشر ساعات. أما إذا كان السفر إلى تلك الجهة في السكة الحديدية ففي طريق آخر لا مناظر فيه ولا جمال، ولا تقل مسافته عن ٢٤ ساعة.

وأحسن محل في الأوتوموبيل المحل نمرة ٣ خلف السائق، والأجرة ٢٠ روبلًا ونصف ذهابًا ومثلها إيابًا خلاف أجرة العَفْش. وقد رَكِبْتُ الأتوموبيل مع غيري من السياح، واخْتَرَقْتُ به سلسلة جبال القوقاز المشهورة، وتُسَمَّى هذه السكة بالسكة الحربية الكورجية؛ لأن الجيوش الروسية استعملتها في حروبها في القوقاز، وأكثر سكان هذه الجبال نصارى من الكورج ويسكنها أيضًا الأنكوش والأستين، وليسوا كلهم مسلمين. أما مناظرها فمدهشة وجميلة للغاية لا يذكر بجنبها أجمل مناظر سويسرة، فمن حزون إلى سهول إلى قمم شاهقة تناطح السحاب يانعة خضراء، إلى نجاد ووهاد كلَّلَتْها الأشجار، إلى وديان سحيقة تجري فيها الأنهار، إلى قلل شامخة تأخذ هي الأخرى بمجامع الألباب، ولو أنها قرعة جرداء لا نبات فيها ولا ماء. وفي الطريق لوكاندات ومحطات أولها محطة قازبق (كلمة محرفة عن غازي بك) وأنفاق كأنفاق السكك الحديدية تمر منها الأتومبيلات وعلامات لمعرفة خط السير وتقدير المسافات.

ولما وَصَلْنَا إلى فلاديقافقاز إذا بها مدينة جميلة على نهْر جارٍ اسمه تيريك، وهي مرتفعة عن سطح البحر بثمانمائة متر، فإذا كان الحر شديدًا في تفليس كان البرد بها شديدًا، وهي قاعدة ولاية تيرسكي وبها جنينة بلدية كبيرة في غاية الحسن والجمال، يَحُفُّها نهر تيريك من إحدى جهاتها بل هي أجمل حدائق القوقاز كلها حتى نفس تفليس، وكلها مضاءة بالكهرباء وفيها تَصْدح الموسيقى العسكرية في كل يوم، وإليها يَهْرع الناس بكثرة. وبالبلد جامع فخيم على حافة النهر بمأذنتين عاليتين في غاية الحسن، وبها شارع كبير في وسطه مَمْشَى طويلة مغروسة فيها الأشجار ذات الظل الظليل على الجانبين، وموضوعة فيها مقاعد للجلوس من الطرفين. وعدد سكان هذه المدينة ٧٥ ألف نَفْس، وبها فنادق كبيرة مثل الجران أوتيل والأمبريال وغيرهما، ومنها تسافر القطارات إلى شمال روسيلو وإلى حمامات القوقاز المعدنية المشهورة وهي بياتيجورسك على بعد ساعات من فلاديقافقاز — وإيسانتوك وكيزلوفودسك ومنها يَخْرج ماء نارزان المعدني الذي يُشْرَبُ في الروسيا بكثرة — وجيلزنوفودسك. وهذه الحمامات متقاربة من بعضها، وكلها في غاية الاستعداد ولا ينقصها شيء من معدات الراحة والنظافة الموجودة في غيرها من حمامات أوروبا المعدنية، والفنادق هناك مُعْتَبَرة غير أن أُجْرة السكن فيها غالية جدًّا.

وفي ولاية تيرسكي تَسْكُن قبيلة من الجراكسة اسمها القابارطاي، والجهة المقيمة بها هذه القبيلة تَبْعُد عن فلاديقافقاز سِتَّ ساعات في السكة الحديدية. وسُمِّيَتْ ولاية تيرسكي بهذا الاسم نسبة إلى نَهْر تيريك، وهو نَهْر يَنْبُع من جبال قازبق (غازي بك) في سلسلة جبال القوقاز، ويَصُبُّ في بحر الخزر.

الفصل الرابع

في بلاد الشركس والداغستان

على بُعْد ثلاث ساعات من فلاديقافقاز ولاية قوبانسكي، وهي مقر معظم قبائل إخواننا الجراكسة، وتلك القبائل هي أبزاخ وحاتوقاي وبجدوغ وكمكوه وشابسغ وحكوص، وسُمِّيَتْ ولاية قوبانسكي بهذا الاسم نسبة إلى نهر قوبان، وهو نهر يَنْبُع من جبال البزر في سلسلة جبال القوقاز ويَصُبُّ في البحر الأسود، وفي سفوح جبال البزر الشمالية تسكن قبائل قره جاي الجركسية، ومن قبائل الجركس أيضًا قبيلة شيشانسي من سكان الجبال، ولا تَنْسَ القبائل التي ذكرناها عند الكلام على بلاد أباظا.

والجراكسة وإن كانوا لا يزيدون عن ٥٠٠ ألف نفْس، لكن أهل القوقاز جميعًا يَخْشَون بَأْسهم لِمَا امتازوا به من الشجاعة والجسارة والرماية والفروسية. والروسيا نفسها تحسب لهم كل حساب وتحترمهم مزيد الاحترام.

ومن تيرسكي إلى كمرة بلد الشيخ شامل ١٦ ساعة، ست منها في العربة وعشر على ظهر الفرس، وهذا الرجل الخالد الذكر هو من قبيلة اللزجين في الداغستان، وحقيقة اسمه «شمويل» ولكنه اشتهر في مشارق الأرض ومغاربها بشامل، ونحن نجاري الناس في ذلك ونُسَمِّيه دائمًا بهذا الاسم المشهور.

لم يكن الشيخ شامل رجلًا حربيًّا فقط؛ بل كان رجلًا دينيًّا وإداريًّا، وهو الذي كوَّن الجامعة القوقازية وأنشأ المحاكم الشرعية في القوقاز، وقد حارب الروسيا ٤٥ سنة على التحقيق، منها ١٣ سنة تحت راية غيره و٣٢ سنة مُسْتَقِلًّا بنفسه، ولولا خيانة حاجي مراد لَمَا تَمَكَّنَت الروسيا بكل حَوْلِها وقُوَّتِها وصَوْلَتِها وسَطْوَتِها من أَسْرِه أبدًا، ولظل يحاربها إلى الممات.

فحاجي مراد هو إذَنْ يهوذا القوقاز، أو حَسَن تحسين الذي داس بأرجله على عهود الوطن وخالف واجبات الشرف والذمة وأضر — وأي ضرر — بحقوق الأمة،

حيث سَلَّمَ سلانيك إلى اليونان غنيمة باردة من غير ما حرب ولا طعان، فيا له من وغد ذميم وسافل دنيء لئيم ونذل حقير جبان. ومن العجائب — والعجائِبُ جمَّة — أنه لا يزال حيًّا للآن، ولم يُوطَأ بالأقدام ويَبْصُقْ على وجهه الخاص والعام، ثم يُقَطَّع إربًا إربًا (ولو بصفة استثنائية) ويُصَبُّ على جسمه الغاز ويُلْقَى به بلا أدنى شفقة ولا رحمة إلى النيران، حتى يكون عبرة لمن يخونون الأوطان ويبيعونها للغير بأبخس الأثمان، ألا لعنة الله على الخائنين الأحياء منهم والميتين، يهودًا كانوا أو نصارى أو مسلمين.

ولَمَّا وقع الشيخ شامل أسيرًا في قبضة روسيا خَصَّصَتْ لإقامته محلًّا بمدينة كالوجا الواقعة على نهْر أوكا، وهي على بُعْد ٤٠٠ كيلومتر من موسكو، وقد أقام هناك مُعَظَّمًا مُكَرَّمًا إلى أن رَخَّصَتْ له الحكومة القيصرية بالسفر إلى الأقطار الحجازية، فحَجَّ البيت الحرام وزار الروضة الشريفة النبوية، ثم اختار المدينة المنورة مقرًّا له، إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، رضي الله عنه وأرضاه وجَعَلَ الجنة مُتَقَلَّبَه ومثواه، ورفعه إلى عِلِّيِّين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

وبموت الشيخ شامل وزميله الأمير عبد القادر الجزائرلي، انقرضت دولة الأبطال في الإسلام، وقَدْ خَلَّفَ ثلاثة أولاد وهم: محمد شافع؛ وقد تَرَبَّى في مدارس روسيا ثم انْتَظَمَ في سلك الجيش الروسي، وما زال يَتَرَقَّى فيه إلى أن وَصَلَ إلى رتبة جنرال، وقد تُوُفِّيَ من ثَلَاث سنين ودُفِنَ في أرض الجراكسة بولاية قره جاي، وغازي محمد باشا وقد مات هو الآخر في المدينة المنورة، ومحمد كامل وهو مقيم بها الآن.

وقَبْر الشيخ شامل يوجد بالمدينة المنورة بجوار قبر العباس عَمِّ النبي وأمام قبر الإمام ابن حَجَر، وقد بَعَثْنَا بصورته في شبيبته وكهولته وشيخوخته إلى إدارة المؤيد الأغر لِيَرَاها هناك ويَتَبَرَّك بها من يشاء.

والداغستان يُقَدَّرون بنحو ٨٠٠ ألف نَفْس، ولهم من الصفات والأخلاق الفاضلة ما لإخوانهم الجراكسة، والفضل في تهذيبهم وتثقيفهم وبث روح الفضائل والكمالات في نفوسهم وما هم عليه من الاستقامة والصلاح والتقوى يرجع إلى رجل من علماء بخارى اسمه الشيخ محمد بن سليمان، وكم لبخارى قديمًا وحديثًا من الأيادي البيضاء في خدمة الإسلام والمسلمين، وعلى هذا الشيخ الجليل نَبَغَ الشيخ منصور صاحب الدعوة إلى الجهاد ضد الروسيا، ومن تلاميذه الشيخ شامل.

والجراكسة واللزجين والأباظا من أقدم أمم القوقاز، ولم يُعْلَم في التاريخ أن أممًا قبلهم سَكَنَتْ هذه البلاد، فلقد نزحوا إليها من آسيا الوسطى واستوطنوها قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة، وفي القرن الثامن للميلاد أسلموا جميعًا فاعْتَزَّ بهم الإسلام؛ لأنهم في الواقع قوة لا يُسْتَهَانُ بها، وكلهم يرجعون إلى أصل واحد تقريبًا ولكنهم لما جاءوا القوقاز تفرقوا في جهات مختلفة فاخْتَلَفَتْ لهجاتهم الكلامية، ولغتهم جميعًا لا تقرأ ولا تكتب (ما عدا الداغستان، فإن لغتهم لها قراءة وكتابة خاصة بها، وحروفها هي نفس حروف الهجاء العربية، ولكن مِنْ ضِمْن هذه الحروف حرفًا لام وكاف تَحْت كل واحد منهما ثلاث نقط، وهذه اللغة لا تُشْبِه أية لغة من اللغات الشرقية ولا غيرها، بل هي لغة قائمة بذاتها وفيها كلمات عربية كثيرة. وفي العهد الأخير أَسَّسُوا مطابع عديدة في تيمورخان شورا مركز ولاية الداغستان، تُطْبَع فيها كُتُب ومجلات باللغة العربية الفصحى وباللغة الداغستانية)، ومن أظهر مخارج الحروف فيها: الحاء والخاء والسين والشين والقاف والغين، وكل معاملاتهم وصكوكهم تكتب باللغة العربية، وعلماؤهم وأئمتهم يعرفون هذه اللغة قراءة وكتابة؛ لأنها لغة دينهم، وزيادة على ذلك فإن الداغستان يقرأون ويكتبون بالعربي ويتكلمون، وكل هذه القبائل على اختلاف أنواعها تلبس لبسًا واحدًا يسمى جركسكا، وهو عبارة عن جبة اسمها عندهم شوخا، وفي صدرها أصابع تسمى كازيري كانت معدة في الأصل لوضع الرصاص فيها، وأصبحت الآن لمجرد الزينة والمحافظة على التقاليد القديمة، وخنجر يتدلى على بطونهم اسمه كنجال، وقد يكون جفيره من الذهب مرصعًا بالحجارة الكريمة أو غير مرصع، وقد يكون من الفضة أو غيرها على حسب مقدرة الشخص، وقلبق يوضع على الرأس اسمه باباخ، وفي البرد يرتدون فوق هذه الكسوة برداء من الفرو الأسود على شكل عباءة اسمه فوركا.

وكذلك الكورج نصارى ومسلمين يلبسون على الغالب هذا اللبس، وتسمى الجُبَّة عندهم آرخالوخ، ومنهم من لا يضع الباباخ على رأسه ويَلُفُّ عليها لفافة من القماش تُسَمَّى باباناقي، وتتدلى منها عَزَبَة خَلْف الظهر، ومنهم من يغطي رأسه بقطعة قماش مصنوعة اسمها باشلاقي، وهي عبارة عن قلنسوة لها زِر لونه كَلَوْن القطعة وطرفاها يمتدان على الجانبين إلى الفخذين.

والكورج تَنَصَّروا في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع بَعْد الميلاد، ولُغَتُهُمْ تَقْرَأ وتَكْتُب، والكتابة الكورجية وُجِدَتْ في القرن الرابع قبل المسيح وحروفها نَسِيجٌ

وَحْدَه فلا تُشْبِه غَيْرَها من الحروف الأخرى، وقد خَرَجَ من الكورج جملة شعراء أهمهم روستافلي الشاعر الكورجي الكبير، وكان عائشًا في أواخر القرن الثالث ومِنْ أعظم شعره قصيدة اسمها جِلْد الفهد.

الفصل الخامس

القوقاز

ينقسم القوقاز إلى قسمين منفصلين عن بعضهما بسلسلة جبال القوقاز أحدهما في أوروبا والآخر في آسيا، ولغات القوقاز هي الكورجية والمنجريلية واللزجينية والسوانية ولغة الشيشانسي، وفيه أيضًا اللغة الروسية والأرمنية والتركية والفارسية، وعدد اللهجات الكلامية فيه يَبْلُغ نحو ثلاثين لهجة، وميزانية القوقاز ٦٧ مليون روبل (نحو سبعة ملايين جنيه)، ومعظم التجارة في القوقاز بِيَدِ الأرمن وكذلك الصياغة، فَلَهُمْ فيها القدح المعلى، حتى إنَّ جميع جفار الخناجر والسيوف المرصعة هناك من صُنْع أيديهم، وضباط العجم رعايا روسيا لا يحملون الكاسكيت العسكرية مثل إخوانهم في الجيش الروسي، بل يَلْبَسُون القلبق العجمي مرسومًا عليه شارة فارس مُذَهَّبَة أو مُفَضَّضَة، وهي كما لا يخفى عبارة عن أسد شاهرًا سيفًا بيده اليمنى، وعلى ظهره قُرْص الشمس بأشعته الوضاءة، وفوق هذه الشارة التاج الروسي.

وعَلِمْتُ أن البرد في القوقاز في زمن الشتاء يكون شديدًا، وقد يَنْزِل الترمومتر إلى درجة أربعة تحت الصفر، وقد يَقَعُ المطر ستة أيام متوالية في بعض الجهات، وخمسة عشر يومًا ليلًا ونهارًا في الجهات الأخرى.

وكان امتداد سُلْطة روسيا على القوقاز وجميع آسيا الوسطى في القرن التاسع عشر، ولكن بخارى لم تَزَلْ مُحَافِظَة على استقلالها تحت سيادة روسيا.

وحاكم القوقاز لَقَبُهُ كَلَقَبِ حاكم الهند أي نائب الملك. وعدد سكان القوقاز يَبْلُغ نَحْو سبعة ملايين منهم ثلاثة ملايين مسلمون، ومليونان من الكرج، و٢٠٠ ألف منجرليان وهم والكورج نصارى أورثوذكس وكاثوليك ولكن الأكثرية أورثوذكس، وفي الكرج ٤٠ ألف مسلم، والأرمن في الدنيا ٤ ملايين منهم مليون ونصف في القوقاز واثنان في تركيا ونصف مليون في العجم. وهناك طائفة من السكان اسمها السوانت

غَيْر معلوم عَدَدُها، وهم لا يزالون على الفطرة حتى إنهم ليكتسون للآن بجلود الغنم وكلهم أورثوذكس، وهم أفقر أهل القوقاز، ومن سكان القوقاز أيضًا ٣٠٠ ألف يهودي. والمنجرليان وإن كانوا كورجا إلا أنَّ لُغَتَهُم لا تُقْرَأ ولا تُكْتَبُ بخلاف لغة الكورج كما قلنا، وكل منهم إذا تكلم لا يَفْهَمُ لغة الآخر.

وفي القوقاز فرقتان عسكريتان؛ إحداهما في قارص على التخوم العثمانية، والثانية في تفليس، وكل فرقة منهما تتألف من نحو ٧٠ ألف عسكري.

وسَمِعْتُ في القوقاز في إحدى الجنائن العمومية في ليلة خيرية مزمارًا وطبلًا بلديًّا، وكان كل الزمارين والطبالين من العجم، ولكن شتان بين نغمات مزمارهم وبين نغمات مزمارنا، فلا عُدِمَتْ مِصْرُ مِزْمَارها وطَبْلها البلدي وكل مشخصاتها ومقوماتها الأهلية.

ومن فلاديقافقاز رَجَعْتُ إلى تفليس بالأوتومبيل، ومِنْ تفليس سَافَرْتُ في السكة الحديدية إلى باكو فوصلْتُهَا بَعْد ١٤ ساعة، وهي مدينة واقعة على بَحْر الخَزْر، وكانت تابعة للعجم ولكنها الآن مِلْك روسيا، وكلها مبنية على الطراز الحديث، وشوارعها منتظمة وفيها النور الكهربائي، وهواؤها رديء وحَرُّها أشد من حر تفليس، والسبب في ذلك وجود آبار النفط على بعد نصف ساعة منها.

وهذه الآبار وإن كانت تَنْفَجِر منها ينابيع الثروة وتَفِيض على أهل البلد النضار، إلا أنها جَعَلَت الطقس في الصيف لا يُطَاق، ولو أن المدينة على شاطئ البحر، وعلى هذا الشاطئ رصيف طويل عريض كُلُّه بالأسفلت يُسَمُّونه البولفار، يَقْصِده الناس مِنْ بعد العصر ويَشْتَدُّ فيه الزحام ليلًا، وفيه تَصْدح الموسيقى العسكرية وكُلُّه يضاء بالنور الكهربائي، وبالقرب منه جنينة البلدية.

وتُعَدُّ باكو عاصمة مملكة البترول والآبار الموجودة فيها وفي الضواحي البعيدة عنها بتسعة عشر فرستا تَبْلُغ مائة بئر، ومنها يخرج أكثر من نصف الجاز الذي يباع في أسواق الدنيا كلها. وفي باكو جملة فنادق أشهرها فندق أوروبا.

وكان بأرباض باكو هيكل قديم لعبادة النيران اسمه زوراستر، ولكنه قد تَهَدَّمَ الآن وتَصَدَّعَتْ منه الجدران، ولم يَبْقَ سوى أطلال بالية تَنْعِق فيها البوم والغربان.

وفي باكو كثير من المسلمين أصحاب الملايين منهم: موسى ناجي يوف، وثروته ٦٠ مليون روبل (ستة ملايين جنيه) وقد مات، والحاج زين العابدين تقي يوف ٥٠ مليونًا، ومرزا علي يوف شرحه، والشيخ علي داداشوف ٣٠ مليونًا، ومختاروف ٢٥ مليونًا.

وكان تقي يوف في أول أَمْرِه «شيالًا»، وهو لا يَعْرِف للآن سوى كتابة اسمه، وعمره ٧٢ سنة، وله وابورات في البحر وبنوكة وفاوريقات، ومآثره على قَوْمه لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، فَكَمْ أقام لهم المستشفيات وأنشأ المدارس لتعليم البنين والبنات، وله غير ذلك من الأعمال الخيرية ما خَلَّد اسمه وعطر بذكره المحافل والمنتديات، وبعد أن كان لا يملك شيئًا من حطام الدنيا أصبح الآن صاحب خمسة ملايين من الجنيهات، وصار يأمر وينهى ويَحُلُّ ويعقد ويتصدر في المجالس والمجتمعات:

وإذا العناية لاحظت عبد الشرا　　نَفُذَت على ساداته أحكامه

وفي باكو أغنياء من الأرمن منهم؛ كوكوساف ثروته ٨٠ مليونًا، ومانتاشيف ٤٠ مليونًا، وهو صاحب معامل البترول في باطوم وقد مات.

وعدد سكان باكو ٢٠٠ ألف نفس، منهم ١٠٠ ألف مسلم و٥٠ ألف أرمني و١٥ ألف كورجي و١٥ ألف يهودي، والباقي من أجناس أخرى.

الفصل السادس

في بلاد التاتار وفي بطرسبرج

سافرت من باكو إلى أستراخان، والمسافة ٦٢ ساعة، ٤٨ ساعة منها في بحر الخزر وست ساعات من مصب نهر الفولجا في هذا البحر، وإنما سمي بحر الخزر نسبة لأمة من أمم الترك قاطنة على شواطئه تُسَمَّى الخزر، ومسطحه عبارة عن ١٢٥٠ كيلومترًا من الشمال إلى الجنوب، وعَرْضُه يختلف من ٢٨٠ كيلو إلى ٤٦ وكله مِلْك الروسيا ما عدا ساحله الجنوبي فإنه مِلْك العجم. والقسم الشمالي منه يَتَجَمَّد معظمه في السنة ثلاثة أو أربعة أشهر، وفي الصيف يكون هذا البحر هادئًا، وأما في الخريف فيكون هائجًا جدًّا، وهو يُعَدُّ من أهم موارد الثروة في روسيا، وبه يصطادون الفقمة وأسماكًا كبيرة، وليس فيه شيء من جمال البحر الأبيض ولا جمال البحر الأسود، ومن أهم مواني بحر الخزر خلاف باكو كراستو فودسك وألكسندر وفودسك، وتوجد على مصب نهر الفولجا فيه مدينة بتروفسك وبه جملة شركات بحرية تمخر بواخرها فيه وفي النهر معًا، أهمها شركة سامولوث وقافقاز ميركوري، وفي النهر شركة أخرى اسمها فولجسكي يمكن أن تُذْكَر بجنب هاتين الشركتين.

وطريق بخارى يكون من باكو إلى كراستوفودسك، ثم في السكة الحديدية، وهذه السكة تَمُرُّ على مَرْو وسمرقند وطاشقند وأورانبورغ وسامارا وأوفا، وكلها بلاد إسلامية. ومعظم سكان الثلاث بلاد الأخيرة من التتار، والمسافة من كراستوفودسك إلى طاشقند ثلاثة أيام بلياليها في القطار.

وأحسن طريق إلى طهران عاصمة إيران باكو وانزلي «على بحر الخزر» ومنها في ترعة إلى بير بازار، ثم في العربة إلى رشت فقزوين فطهران، ومسافة هذا الطريق ثلاثة أيام من باكو. وهناك طريق آخر ولكنه أطول وهو باكو–جولفا–طوريس–قزوين–طهران.

أما أستراخان فمدينة تجارية في غاية الأهمية، حتى إنه ليصدر منها في السنة مليون بود من البضاعة يبلغ ثمنها ١٠٠ مليون روبل (البود معيار روسي يساوي ٤ فونت، والفونت رطل روسي يساوي ٤١٠ جرام، فيكون البود عبارة عن ١٦ كيلو و٤٠٠ جرام).

وسوق البترول رائجة في أستراخان، وكذلك الفحم والفواكه وجلود الغنم والأسماك، ومن هذا النوع الأخير يصدر في السنة ١٥٠ مليون فسيخة (هارنج).

وفي أستراخان عشرة جوامع، وعدد العمال الذين يشتغلون في المراكب في ميناها لا يقل عن خمسين ألفًا، وعدد سكانها ١٥٠ ألف نفس منهم ٣٠ ألفًا من التتار والباقي روس. وفيها النور الكهربائي والتراموای وجنينة عمومية.

ومن أعظم فنادق أستراخان وأشهاها طعامًا نزل موسكو الكبير.

ومن أستراخان سافَرْتُ في الڤولجا على باخرة جميلة من بواخر سامولوث، فمرت الباخرة على جملة بلاد عامرة آهلة بالسكان جميلة المنظر، وَوَقَفَتْ في أهمها: منها سامارَّا وعدد سكانها ١٠٠ ألف نفس، وفيها ثلاثة خطوط حديدية؛ خط إلى موسكو، وخط إلى سيبيريا، ومنها سارَّاتوف وعدد سكانها ٢٠٠ ألف نفس، ومنها قازان وهي ليست على نهر الڤولجا، بل على فرع منه يقال له قازانكا، وهذه المدينة مرتبطة مع موسكو بخط حديدي، وتُعْتَبَر أهم مراكز التتار وعدد سكانها ١٦٠ ألف نفس النصف روس والنصف تتار. والنهضة العلمية فيها بين المسلمين حصلت من عهد عشر سنين، وبها مدارس إسلامية زاهرة، وكتبخانة يتردد عليها في اليوم نحو ١٥٠ مسلمًا، ومطبعة كاديموي وهي أكبر مطبعة إسلامية في روسيا، وبها يُطْبع سنويًّا ٢٠٠ ألف نسخة من القرآن. وفي قازان ١٧ جامعًا.

والتتار قوم في غاية الشهامة والشجاعة، ولهم شهرة في الاقتصاد والاستقامة والقناعة، وهم تجار ماهرون وزُرَّاع بارعون، وأكثرهم يعرفون القراءة والكتابة والحركة العلمية بينهم في باغجة سراي وأستراخان وقازان وأورانبورغ وأوفا في غاية التقدم، ولهم جرائد مخصوصة ومجتمعات علمية ومدارس للبنين والبنات، ومن نسائهن بعض العالمات، وعدد المسلمين التتار في أراضي الڤولجا نحو مليونين، ومركز شيخ إسلام التتار في أوفا، واللغة التتارية هي بِنْت عَمٍّ اللغة التركية وبينهما من المشابهة ما بين اللغتين الطليانية والإسبانية، وكما أن الإنكليز والأمريكان أولاد عم كذلك التتار والترك أولاد عم، ولذلك تراهم يَهْتَمُّون اهتمامًا زائدًا بكل ما يتعلق بالدولة العثمانية، حتى إنهم

ليفرحون لِفَرَحِها ويحزنون لِحُزْنِها، وعدد المسلمين التتار في روسية أوروبا ستة ملايين أكثرهم في أستراخان وقازان وأورانبورغ وأوفا وسامارًا وطنبو وبلاد قاسم وسعيد.

ومن أهم علماء التتار موسى جار الله، وُلِدَ في روستوف وطَلَبَ العلم في قازان وبخارى والمدينة المنورة ومصر، وعمره الآن ٣٥ سنة، ومنزلته في بلاد التتار كمنزلة الشيخ عبده في مصر، وهو يعد هناك من كبار المصلحين الدينيين، وله جملة تآليف ورسائل جليلة.

وقد سألني التتار عن الشيخ محمد عبده والشيخ علي يوسف والشيخ رشيد رضا ومصطفى باشا كامل وفريد بك وجدي، وشَكَرُوا لهم صِدْق غيرتهم على الدين، وأَثْنَوا الثناء الجميل على خدماتهم الجليلة للإسلام والمسلمين.

وعلى بُعْد ساعتين من قازان يُشَاهَد على الڤولجا كوبري من أجمل وأتقن نوع، وبعد سفر سبعة أيام من أستراخان وصلت السفينة إلى نيجني نوف جورود، وهي واقعة على ملتقى نهر أوكابنهر فولجا، وكان مُنْعَقِدًا فيها وَقْت زيارتي لها السوق الكبير «يارماركا»، وهو ذلك السوق الذي يَجْتَمِع فيه الكثيرون من أهل روسيا خصوصًا الفلاحين، ويَقْصِده تجار التتار، ويَنْعَقِد رسميًّا في ١٥ يوليو من كل سنة، وينتهي في ١٥ أغسطس، وأَجْر غُرَف النوم وقتئذ تكون باهظة جدًّا، أما الأكل فكالعادة. وعَدَد سكان نيجني ١٠٠ ألف نفس وللتتار فيها بعْض الجوامع والمدارس.

ومن نيجني سافرت في الڤولجا فَمَرَّت الباخرة على بلاد كبيرة عامرة من أهمها أوستراما، ويُوجَد عِنْد بلد اسمها باراسلاوي كوبري بديع الصنع مثل الكوبري الذي بعد قازان، وبَعْد سفر يومين وَصَلْنا إلى ريبنسكي مدينة الغلال في روسيا، وهنا انتهت السياحة في الڤولجا.

وهذا النهر من أكبر أنهار الدنيا، وله في روسيا المقام الأول بَيْن جميع أَنْهُرها، وهو يَخْتَرِق روسية أوروبا كُلَّها من شمالها إلى جنوبها، وطوله ٣٤٠٠ فرست منها ٣٠٠٠ صالحة للملاحة، ومنبعه في جهة اسمها أوستاشكوف في حكومة توير، وعلى نحو ١٠٠ فرست من المنبع خزان طوله ٧٠٠ فرست يصرف منه الماء في زمن التحاريق، فيرتفع منسوب النهر ويعود ذلك على الملاحة بالنفع العظيم. ومن الڤولجا يتفرع نهران كبيران؛ نهر كاما ونهر أوكا.

وفي وادي الڤولجا ٢٣ حكومة (ولاية) عَدَد سكانها ٤٠ مليون نفس، وعلى ضفتيه ٣٩ مدينة منها تسع عواصم من عواصم هذه الحكومات، وأكثر من ألف بلد، وآخره

عِنْد مدينة توير وهي مرتبطة مع موسكو وبطرسبورغ بخط حديدي، وبينها وبين موسكو ثلاث ساعات، والناظر إليه عند مرور القطار على هذه المدينة يَقَعُ في دهشة، ولا يكاد يُصَدِّق أنه هو نفس نهر الڤولجا العظيم الذي تَمْخُر فيه الوابورات بين أستراخان وريبنسكي؛ لأنه في هذه الجهة أي جهة المنبع يُشْبِه تقريبًا ترعة من ترع مصر، وكلما بَعُد عن المنبع وقَرُب إلى المصب زاد اتساعه وتَدَفَّق ماؤه تدفقًا يُشْبه اندفاع مياه النيل وغزارتها في إبان فيضانه.

وشواطئ الڤولجا عارية ليست كشواطئ النيل التي تتيه دلالًا بما عليها من شجر الدوم والنخيل. والنقط القليلة الماء فيه معلمة على طول النهر بعوامات صغيرة قمعية الشكل على خطين؛ خط أبيض وخط أحمر، وكلها تضاء ليلًا من أعلاها بالكهرباء، وعلى ضفتيه عمد ملونة جميلة الشكل متباعدة بعضها عن بعض بمسافات معلومة، وهي كذلك تضاء بالكهرباء. وفي بعض جهات يكون عَرْضه قَدْر عَرْض النيل مرتين. وأما طُولُه فأقل من طُول النيل بكثير، وهو يَصْلح للملاحة مدة ستة أشهر والستة الباقية من السنة يتجمد ماؤه ويصير كله جليدًا.

وفي الڤولجا يربطون مراين الخشب بعضها ببعض ربطًا مُحْكَمًا، ويجعلون الجزء الظاهر منها أقل من الغاطس بكثير، ويَضَعُون فَوْقَها الإشارات نهارًا ويُوقِدُونها بالمصابيح ليلًا، ويَبْنُون عليها غُرَفًا من الخشب ويَقْطِرونها بقاطرة بخارية فيكون لها أثناء سَيْرها في النهر منظر جميل، وبهذه الوسيلة يتخلص التجار من دفع أجرة باهظة على الخشب فيما لو شحنوه كله في باخرة. ولون ماء الڤولجا في الصيف كلون ماء النيل في شهر طوبة.

وروس الڤولجا ليسوا في درجة من المدنية والتهذيب مثل روس بطرسبورغ وموسكو وكييف وأودسا، وقِطَع الأكل عندهم كبيرة، حتى إنَّ نِصْف الكوستليتة الواحدة ليكفي لتغذية اثنين معًا.

بطرسبرج

ومن ريبنسكي أَخَذَت القطار إلى بطرسبورغ فَوَصَلَتْها بعد ١٦ ساعة، وهي مدينة كبيرة على ضِفَّتي النيفا وفي غاية الحسن والرشاقة، وقد أَسَّسَها بطرس الأكبر سنة ١٧٠٣ على أثر الانتصار الذي أحرزه الأسطول الروسي على بلاد السويد في خليج فنلاندا، وبَلَغَ عدد سكانها في آخر حكمه ٧٠ ألف نفس، وهو الآن أكثر من مليون.

وفي سنة ١٨٢٤ فاض نَهْر النيفا فأَغْرَقَ المدينة، وكان الخطب عظيمًا والمصاب عميمًا، فَوَقَفَتْ حركتها عشر سنوات ولكنها أخذت بعد ذلك في التقدم، فزاد عدد السكان واتسع نطاق العمران، وكلها الآن مبنية على الطراز الحديث وشوارعها في غاية الاستقامة كالألف، فلا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، ومن أهمها وأجملها شارع النيفا وهو شارع طويل لا يُدْرِك الطرف مداه، وبه تُرَع صناعية حسنة الوضع بديعة الصنع.

والنور الكهربائي منتشر في بطرسبورغ بكثرة، وخطوط الترام فيها كخطوط الكف أو كالشرايين في الجسم، وبها ميادين ذات أشجار باسقة ومياه دافقة وأزهار ورياحين. وأجمل منازهها ما كان على شاطئ النيفا أو في الجزر الموجودة به المسمى مجموعها أوستراما وهي ثلاثة: يلاجين وكرستوفوسكي وكامني، وهناك جزيرة رابعة اسمها بازل ولكن ليس فيها شيء سوى المنازل.

ودرجة الحرارة في بطرسبورغ تنزل في الشتاء إلى ٢٥ تحت الصفر بميزان سانتيجراد (أما في سبيريا فتنزل والعياذ بالله إلى ٤٠)، ونهر النيفا في هذا الفصل يَتَجَمَّد ماؤه، ويكون المرور عليه وقتئذ بزحافات، وهواء بطرسبورغ لا بأس به في الربيع والصيف فقط.

وقصر الشتاء في بطرسبورغ على ضفة النيفا من جهة وميدان فسيح من جهة أخرى، وفي وسط هذا الميدان عمود من الحجر المحبب (الجرانيت) اسمه عمود إسكندر، وهو قصر رفيع العماد لم يُخْلَق مثله في البلاد، فلا الخَوَرْنَق يُحَاكِيه ولا أي قصر من قصور الملوك في أوروبا يُدَانِيه، وفيه ١٦٠٠ غرفة كلها مؤثثة بالأثاث الفاخر والرياش الثمين، وبه الكنز الإمبراطوري، وهو يحتوي على صولجان مُرَصَّع بِقِطَع ماس من أكبر ما يوجد في أوروبا، وتاج كاترينة الثانية وثمنه ١٠٠ ألف جنيه، وصليب كبير مُرَصَّع بماس وأواني جميلة من خزف سيڤر وطنافس بديعة للغاية.

والقيصر مُصَوَّر في بطرسبورغ على جملة صُوَر بأشكال مختلفة، منها صورة تُمَثِّلُه بصفة جندي بسيط لابسًا ملابس عَسْكَرِيٍّ وعلى ظهره الجربندية والحرام، وفي خصره الزمزمية، وفوق كتفه الشمال البندقية، وولي العهد (تزاريفتش) عمره الآن تسع سنين.

وفي بطرسبورغ كنائس فخيمة جدًّا، أهمها كنيسة القديس إسحق وأصله من دلماسيا، وكنيسة قازان، وكنيسة القيامة، وقد أُسِّسَت هذه الأخيرة على أَحْسَنِ طرز وأجمل هندام في المحل الذي قُتِلَ فيه الإمبراطور إسكندر الثاني غَدْرًا بِيَدِ النهلست في

أول مارس سنة ١٨٨١، وقواعدها من الرخام الأسود المصقول كالمرآة. وأنَّى للقلم أن يُوَفِّيَ هذه الكنائس بَعْض حقها من الوصف والجمال، وما حَوَتْه من الطرائف والنفائس. وغاية ما يمكن أن يُقَالَ بالإجمال إنها آية الحسن والإبداع بل عروس الكنائس.

وفي قلعة مار بولس ومار بطرس التي أَسَّسَهَا بطرس الأكبر على شاطئ النيفا الأيمن توجد كنيسة باسم هذين القديسَيْن الكبيرَيْن بها قبور القياصرة من ابتداء بطرس الأكبر لغاية إسكندر الثالث والد الإمبراطور الحالي، وبها أيضًا قبور كبار العائلة الحاكمة. وفي هذه القلعة يُضْرَب مدفع الظهر كل يوم وبها دار الضرب.

وفي بطرسبورغ دير ألكسندر نيفسكي الذي غلب السويديين في سنة ٤٢٠، وبه كنيسة البشارة المدفون بها أعاظم الكتاب ومشاهير الرجال في روسيا، فهي كالبانتيون في باريس المنقوش على بابه: «لعظماء الرجال شَكَرَ الوطن.»

وزيادة على هذه الكنائس الروسية يوجد في بطرسبورغ كنائس للأرمن والكاثوليك والبروتستانت، وكنيس لليهود في غاية البساطة والحسن، وأمامه على ربوة سفينة نوح.

ويوجد فيها جامع فخيم للمسلمين في شارع كون بورج على شاطئ النيفا الأيسر، وقد بلغت تكاليفه مليون روبل (مائة ألف جنيه) جُمِعَتْ كلها بالاكتتاب، وهو على طرز جوامع التركستان وله مأذنتان.

والفضل في بنائه عائد إلى أمير بخارى المعظم، فإنه لما زار جلالة القيصر قال له: يا مولانا لكل أمة في بطرسبورغ من رعاياك معبد ما عدا المسلمين، وهم هنا كما لا يَخْفَى على الأنظار العالية غير قليلين، فهل لجلالة القيصر أن يَأْذَنَ لهم ببناء جامع يَجْمَع شتاتهم ويَلُمُّ شملهم، ويُقِيمُون فيه كغيرهم شعائرَ الدين، فأظهر القيصر ارتياحه إلى هذا الطلب العادل وأَمَرَ ببناء الجامع، وهي مأثرة جليلة يَذْكُرُها لجلالة القيصر نقولا الثاني بالشكران على مدى الزمان رعاياه المخلصون من المسلمين، ويُشْرِكُهُم في المدح والثناء في بقاع المسكونة كافة إخوانهم في الدين.

وفي بطرسبورغ كتبخانة إسكندر المشهورة، وبها مصحف كبير بخط اليد، كما فيها أكاديمية الفنون الظريفة وأكاديمية العلوم التي بداخلها كتبخانة فيها ثلاثون ألْف مجلد وكتب أخرى كثيرة بخط اليد ومجموعة نقود ومداليات ثمينة ومتحف نباتي ومتحف جيولوجي ومتحف أسيوي.

وفي بطرسبورغ متحف حيواني ومتحف الإيرميتاج، وبه آثار مصرية وآشورية وتماثيل يونانية ورومانية ومجموعة نقود ومداليات في ثلاث غرف، وكتبخانة تحتوي على مائة ألف مجلد ولوحات صور ورسوم فرنساوية وطليانية وإسبانية.

وفي بطرسبورغ متحف إسكندر الثالث ومتحف مُشْتَمِل على كثير من تُحَف الصينيين واليابانيين، وبها متحف البيداجوجيا ومتحف الطوبجية ومتحف آسيا ومتحف الموسيقى ومتحف بطرسبورغ القديمة ومتحف سيبيريا والشرق الأقصى ومتحف الطب العسكري ومتحف التاريخ الطبيعي، ومن ضمن ما فيه حيوانات هائلة وحيتان كبيرة وثعابين ضخمة وطيور من التي تعيش في الثلج وغير ذلك. وفيها متحف قوانين الصحة ومتحف المقاييس والموازين ومتحف بحري في نظارة البحرية في الدار العظيمة التي أسسها بطرس الأكبر المعروفة بالأميروتية، وفي هذه الدار أيضًا كتبخانة كبيرة.

وفي بطرسبورغ رصدخاناتان وميدان فسيح جدًّا اسمه شان دومارس، أسسه بطرس الأكبر لإقامة الأعياد الأهلية وعمل الاحتفالات العسكرية.

وبالقرب من قلعة القديس ماربولس ومار بطرس منزل بطرس الأكبر على ما كان عليه في أيامه، وأكثر الأدوات والمفروشات الموجودة فيه من صنع يده.

ولبطرس الأكبر في بطرسبورغ ثلاثة تماثيل مختلفة، وفيها تمثال لكاترينة الثانية، ولنقولا الأول الذي حَصَلَتْ حرب القريم في أيامه، ولإسكندر الثالث مؤسس سكة حديد سيبيريا العظيمة.

ودواوين الحكومة في بطرسبورغ في غاية الفخامة، ومن المباني العظيمة بناية مجلس شورى الدولة والسينود المقدس والدوما.

وأسباب البسط والانشراح في بطرسبورغ متوفرة صيفًا وشتاء توفرها في برلين وفيينا وباريس ولوندرة، ففيها تياترات من كل نوع وملاهٍ مختلفة أشهرها الأكواريوم وكازينو وجنائن عمومية، ومطاعم فاخرة منها مطعم كوبات وهو أغلاها ومطعم الدب ومطعم فرنساوي ومطعم طلياني.

وفيها محلات لبيع تذاكر السكك الحديدية وأَسِرَّة النوم وتذاكر الملاحة النهرية والبحرية، وفنادق معتبرة منها فندق أوروبا وأستوريا وإنكلترا وفرنسا وريجينا.

وكل السفرجية في مطاعم هذه الفنادق مسلمون من التتار، وهم على العموم بارعون في الخدمة براعة الإفرنج فيها، ولا يَقِلُّون عنهم مهارة وسرعة ونظافة وتأدبًا وخفة ورشاقة، وفي أثناء تأدية وظائفهم يكونون بالملابس الإفرنكية وحاسرين عن رءوسهم، ولولا ضيق عيونهم لَحَسِبْتَهُم إفرنجًا خلصًا.

وعدد المسلمين في بطرسبورغ ١٢ ألف نفس. ومن ضواحي بطرسبورغ بتروهوف وهي قسمان؛ بتروهوف القديمة وبتروهوف الجديدة، وفي هذه قصر الصيف على شاطئ

البحر أمام كرونستاد، ذلك الثغر الحربي المشهور، وهو وإن كان أصغر من قصر الشتاء إلا أنه لا يقل عنه بهجة ورواء ورياشًا، فَمِنْ قاعة العرش إلى قاعةٍ مفروشة كلها بالحرير الأبيض وتُسَمَّى القاعة البيضاء، إلى أخرى بالحرير الأزرق وتُسَمَّى القاعة الزرقاء، إلى حجرة اسمها حجرة بطرس الأكبر إلى غرفة صينية كلها تحف جميلة من تحف الصين، وهكذا مما يَتَخَيَّل معه الإنسان عند الطواف في هذا القصر وفي أخيه قصر الشتاء في بطرسبورغ أنه يطوف في غرف الجنان.

وفي بتروهوف الجديدة نوافير وعيون ينفجر منها الماء على أشكال مختلفة تروق الناظر وتَسُرُّ الخاطر، وهي على مثال مياه فرساي الشهيرة في فرنسا. ولكل عَيْن من هذه العيون اسم، فمنها واحدة تُسَمَّى عَيْن آدم، وأخرى تُسَمَّى عَيْن حواء وهكذا. وهناك حدائق غِنَاء تَصْدَح فيها موسيقى المعية القيصرية مرتين في الأسبوع، وكل رجالها ضباط يَرْتَدُون وَقْتَ العمل بفرتيكة حمراء فوق البنطلون، ويتحزمون عليها بحزام. وبروجرامها يُوَزَّع على الناس وكُلُّ الأفرع مكتوبة فيه باللغة الفرنساوية.

ولم يُصَرَّحْ لي بزيارة القصرين إلا بعد الاطلاع على الباسبور والتحقق من شخصيتي.

هذا؛ وكل قصور الملوك في أوروبا مُعَدَّة للزيارة والفرجة في أوقات معينة، ولكل إنسان أن يُشَاهِدَها متى كانت خالية من أربابها.

ولبطرس الأكبر في تلك الجهة منزل كان يصيف فيه، وهو الآخر لا يزال كما كان مُدَّة وجوده حافظًا لشكله القديم، ولجميع الأثاثات والأدوات التي كان يَسْتَعْمِلُهَا هذا القيصر العظيم.

وفي بطرسبورغ جملة جرائد كبيرة منها النوفي فريما وغيرها، وثمن النسخة الواحدة منها ٥ كوبك؛ أي قرش تعريفة كما في مصر. وفيها جريدة تُنْشَر باللغة الفرنساوية واسمها جورنال دوسان بطرسبورغ، وهي الآن في السنة الواحدة بعد المئة من عمرها.

ومن بطرسبورغ إلى باريس طريقان أحدهما بطرسبورغ-برلين-باريس، ومسافته ٤٨ ساعة، والثاني بطرسبورغ-فارسوفي-ألكسندروفو-برلين-باريس، ومسافته ٥٣ ساعة.

وفي سياحتي الأولى في الروسيا كاد الليل في بطرسبورغ في شهر مايو أن يكون كله فجرًا، فلا تُوقَد فيه المصابيح لا في الطرقات ولا في العربات، وكُنْتُ إذا أَوَيْتُ إلى

غرفتي وَقْت النوم لا أجد حاجة لتنويرها اكتفاء بذلك النور الهادئ اللطيف نُورِ الفجر الدائم، والشمس في تلك المدة كانت تَغْرُب في الساعة التاسعة مساء وتُشْرِق في منتصف الساعة الرابعة بعد نصف الليل.

ومن بطرسبورغ إلى موسكو عشر ساعات في الإكسبريس.

الفصل السابع

آخر السياحة

موسكو مدينة مقدسة عند الروس وكلها مضاءة بالنور الكهربائي والتراموای يسير فيها من أولها إلى آخرها، واسمها بالروسي موسكوفا وإليها ينسب الموسكوف وهي قَلْب الروسيا بمثابة القلب من الجسد، ولذلك يسمونها قَلْب روسيا، وكما أن رومة هي عاصمة الديانة الكاثوليكية، كذلك موسكو هي عاصمة الديانة الأورثوذوكسية واللغة الروسية في موسكو فصيحة نقية، بل هي أَجْمَل وأَفْصَحُ منها في غيرها من جميع البلاد الروسية، كما أَنَّ اللغة الفرنساوية في تور واللغة الطليانية في سيينا وفلورانسا أَفْصَح منهما في سائر البلاد الفرنساوية والطليانية، وتجار موسكو بارعون في التجارة لدرجة أنهم يفوقون فيها على تُجَّار روسيا كلها.

وفي موسكو كنائس فخمة جدًّا منها كنيسة كرملين التي يتوج بها القياصرة عند جلوسهم على العرش، وفيها قبور القياصرة القدماء مثل ميخائيلوف وألكسيس وتيودور، وفي موسكو ناقوس قديم ذو زنة كبيرة حتى إنه لضخامته وعِظَمِه يُسَمُّونه قيصر النواقيس، وبها جملة مزارات منها رواق للصُّوَر والرسوم اسمه جالليري تريشيجوف، وفيها جملة تياترات وملاهٍ وقَصْرٌ جميل للقيصر، ويقولون إن هواء موسكو وإن كان باردًا في الشتاء إلا أنه جافٌّ ولا ضَرَرَ منه، وفيها فنادق كبيرة مهمة منها المتروبول والناسيونال والسافواي والكونتينانتال ونزل موسكو الكبير، وعَدَد سُكَّان موسكو يَنِيف عن المليون، ومنها إلى سواسطابول في القريم بالسكة الحديدية ٣٠ ساعة، ونحو ثلاثة أيام إلى تفليس في القوقاز.

وفي موسكو قابلت رجلًا تتريًّا فسألته بالتركي كم عدد التتار هنا، فعبس وتولى ثم استفهم مني بخشونة وغلظة سن كم (أنت من؟) فعرفته بنفسي، فلم يقتنع بل فتح محضرًا وعمل معي تحقيقًا:

س: نره ليسن (أنت من أين؟)

ج: مصرلي (من مصر).

س: نه وقت كلدك (متى جئت؟)

ج: دون أخشام (البارحة مساء).

س: مسلمانمي سن (أمسلم أنت؟)

ج: أوت أفندم بن مسلمان (نعم يا سيدي أنا مسلم).

وهنا طوي المحضر، وبَعْد أنْ تَفَرَّسَ فِيَّ قليلًا أراد أن يمتحنني ليَعْرف إنْ كُنْتُ حقيقة مسلمًا أو غَيْر مسلم، فقال لي بكل بساطة وسذاجة ولكن بصوت أَجَشٍّ: شمدي ألم نشرح لك صدرك أو قوسنا — هايدي باقلم — الآن اقرأ لنا سورة ألم نشرح — هيا لِنَنْظُر، فحَمِدْتُ الله على أن وَقَعَ اختياره على هذه السورة ولم يَقَعْ على غَيْرِها، وقلْتُ في سِرِّي الخطب سَهْل وجاوبته: بكي أفندم، أي سمعًا وطاعة، ثم تَعَوَّذْتُ بالله من الشيطان الرجيم وسَمَّيْتُ بسم الله الرحمن الرحيم ورَتَّلْتُ له السورة ترتيلًا، فانشرح صدر الرجل وأَقْبَلَ عليَّ وهَشَّ وبَشَّ في وجهي بعد أن كان عابسًا، وقال لي ياغجي — صاغول أوك (الكاف تنطق نونًا) أي عظيم — أشكرك، وما كان أَسْرَعَ بَعْد ذلك أن أجابني إلى ما طَلَبْتُ ثم سَلَّمَ عَلَيَّ وانصَرَفَ مسرورًا، وعَلِمْتُ منه أن عدد المسلمين في موسكو ١٨ ألف نفس.

ومن نحو عشر سنين تَعَرَّفْتُ في موسكو بفَخْر روسيا وعَلَمِها الخفاق الجامع بين فضيلَتَي العلم والعمل، ومُحِب الجنس البشري على الإطلاق نابغة الزمان ومعدن الفضل والعرفان الفيلسوف الكبير تولستوي (وأصْله ضابط في الجيش)، وكان نازلًا وقتئذ عند أحد مريديه ولابسًا ملابس الفلاحين وهي أحبُّ شيء إليه، وقد دعاني لزيارته في بلده ياسنايابوليانا فشَكَرْتُ واعْتَذَرْتُ.

ولا غرابة إذا وفَّى تولستوي النبيَّ حَقَّه في كتابه «حكم النبي محمد»، فإنما يَعْرِف الفضل من الناس ذووه، والرجل جواد مضياف كثير الرماد، وكانت دارُهُ قبل موته مَهْبِط الحكمة العالية وكعبة القُصَّاد من سائر البلاد، ومن مبادئه نشْر لواء السلام وبَثُّ روح المحبة والإخاء بين جميع الأنام، وحُبُّ الفلاحين والعطف على الفقراء والمساكين واحتقار المال، حتى إنه وزَّع معظم ثروته على البائسين والمعوزين وعاش عيشة الزهد والتقشف، وما كان يألو جهدًا في كل وقت وآن في تخفيف ويلات بني الإنسان وتبديد

ظلمات الجهل وتنوير البصائر والأذهان. وكان ينظر إلى هذا الوجود بنفس العين التي كان ينظر بها إليه الشاعر الكبير والفيلسوف العربي الخطير أبو العلا المعري في قوله:

واللبيب اللبيب من ليس يَغْـ ـتَرُّ بكون مَصِيره للفساد

ولكنه مع زُهْدِه وإعراضه عن الدنيا، ورَغْمًا من شيخوخته وتَقَدُّمه في السن، لَمْ تَمُتْ هِمَّتُه ولَمْ يَجْنَح قَطُّ إلى البطالة والكسل، بل كان يَعْمل على الدوام ولا يَمَلُّ أبدًا من العمل، وبالجملة فمنزلة تولستوي عند الروس كمنزلة كونفسيوس عند الصينيين والروس؛ يُحِبُّونه حُبًّا يَقْرُب من العبادة حتى كان في حياته إذا طَرَقَ أيَّ باب فُتِحَ له في الحال، وقُوبِلَ بكل ترحاب.

ومن موسكو إلى كييف ٢٢ ساعة في الكوريسكي. وكييف مدينة جميلة على نهر الدنيبر، وفيها الترامواي والنور الكهربائي، وشوارعها واسعة وفي غاية النظافة، وكنائسها جميلة والديورة أجمل، وبها جثمان جماعة من القديسين، وفي كييف لوكاندات عظيمة منها السافواي والكونتينانتال وغيرهما، وعدد سكانها ٦٠٠ ألف نفس منهم ٢٠٠٠ مسلم.

والدنيبر نهر كبير منبعه في حكومة سمولنسك وطوله ٢٠٠٥ فرست، ويَخْتَرِق تسع حكومات، ويصب في البحر الأسود وليس كله صالحًا للملاحة.

وفي سياحتي الأولى في الروسيا زُرْتُ ريفال، وفيها أسطول البلطيق وفيلنا، ومعظم أهلها يهود وريجا وأكثر سكانها ألمان، وهلزنجفورس عاصمة فنلندا وهي على شاطئ البحر، وفارسوفي عاصمة بولونيا وما أكثر اليهود فيها، وكلها بلاد لطيفة في غاية التقدم والعمران.

ومن كييف إلى أودسا نحو ١٠ ساعات بسكة الحديد، ويوجد الآن قطار يقطع المسافة من بطرسبورغ إلى أودسا في ٣٢ ساعة.

ومن أودسا إلى الأستانة ٣٤٤ ميلًا، ومن الأستانة إلى الدردنيل ١٣٥م، ومن الدردنيل إلى أزمير ١٤٢م ومن أزمير إلى بيريه ٢١١م ونصف، ومن بيريه إلى إسكندرية ٥٣٩م.

تمَّت السياحة ولم يَبْقَ إلا بعض كُلَيْمات على تاريخ روسيا وشئونها العمومية.

الفصل الثامن

ذيل السياحة

أخبار ومعلومات عن روسيا

فالروسيا لها الآن في الوجود ١٠٥٠ سنة، وأول عواصمها نوف جورود (المدينة الجديدة) على بحيرة دلمي، وهي على بُعْد ١٥٠ كيلومترًا من بطرسبورغ، وثاني عاصمة كييف، والثالثة موسكو، والرابعة بطرسبورغ، وقد حكم الروسيا عائلتان؛ عائلة روريك وعائلة رومانوف وهي العائلة الحاكمة الآن، ورومانوف هذا كان بطريقًا على موسكو، وأوَّل من تَوَلَّى أريكة المُلْك مِن ذُرِّيَّته القيصر ميخائيلوف، وتلاه الكسيس ثم تيودور ثم بطرس الأكبر، وهو أوَّل مَنْ لُقِّبَ بِلَقَب إمبراطور.

وقد حَكَمَ الروسيا أيضًا التتار المسلمون ٢٥٠ سنة، والسعيد من الروس في ذلك العهد من كان يُزَوِّج بِنْتَه إلى أمير من أمراء التتار.

ولما اخْتَلَفَتْ كلمة التتار ودَبَّتْ بينهم عقارب الشقاق، انتهز هذه الفرصة الغراندوق ديمتري دون سكوي، وقاتلهم حتى أجلاهم عن أرض الروسيا وأرجعهم إلى بلادهم الأصلية، وكان ذلك في سنة ١٣٨٠، وفي سنة ١٥٥٢ استولى القيصر إيوان (أي حنا) الملقب بالمهول على قازان عاصمة التتار، وبَعْدها بسنتين أَخَذَ أستراخان، ومن ذلك الوقت إلى الآن أَصْبَحَ التتار تَحْتَ حُكْم الروسيا بَعْد أن كانوا سَادَتَها وحُكَّامَها، فانظر يا صاحِ إلى تقلبات الزمان:

فيوم لنا ويوم علينا ويومًا نُساءُ ويومًا نُسرُّ

وقد دَخَلَت الديانة النصرانية في روسيا في القرن العاشر للميلاد على يد قسس أروام من قسس القسطنطينية، ترجموا الإنجيل إلى اللغة البلغارية القريبة من اللغة

الروسية، وكانت هذه الترجمة من أقوى العوامل على انتشار الديانة المسيحية في روسيا. وأوَّل مَنْ تَنَصَّر من الروس الغراندوقة أولغا وقد تَمَّ تنصيرها في القسطنطينية، وكان عرابها الإمبراطور قوسطنطين بورفيروجينيت، وبعدها تَنَصَّرَ حفيدها فلاديمير وهو الذي نَشَرَ الديانة النصرانية في روسيا كلها؛ حتى عَدَّه الروس من كبار القديسين، وأنزلوه منزلة الحواريين والرسل الأولين.

وكنائس روسيا لا تقل الآن عن ٥٠٠ ألف كنيسة، والقسس يبلغون المليون عدًّا، وكلهم أقوياء البِنْية جدًّا ولهم مَنْظر مهيب ونفوذ وسطوة على قلوب الشعب، ومن عاداتهم أنهم يُرْخُون شعورهم وراء ظهورهم، وكان لروسيا في أول أمرها بِطْريق له الرئاسة العظمى على جميع رجال الدين، ولكن بطرس الأكبر لما رأى أن البطريق معارض له في الإصلاح ودائمًا يقِفُ حَجَرَ عَثْرَة في سبيل تَقَدُّمِ البلاد وإنهاضها، أَمَرَ بإلغاء وظيفته، ومِنْ وَقْتِها إلى الآن صارت السلطة الدينية والسلطة الدنيوية في قبضة قياصرة روسيا العظام، ولم تَقُمْ للبطارقة قائمة بَعْدَها في البلاد.

وأَغْلَب قباب الكنائس الكبرى في روسيا من البرونز المُذَهَّب، ومنها ما هو على شكل القباب الطيارة، والدين الأورثوذكسي في روسيا أرسخ من جبل رضوى على ظهر الأرض، حتى إنك لترى في كل مكان منها في الطرقات، في الدواوين، في المصالح، في البواخر، في اللوكاندات، في غرف النوم، في المطاعم، في القطارات، أيقونات للمسيح والعذراء والرسل، لا تنقطع من حولها الأنوار لا بالليل ولا بالنهار. وكلما مَرَّ أحد أمام كنيسة رَسَمَ الصليب بيده على وجهه إلى صدره تعظيمًا وتكريمًا (وكذلك الحال غالبًا عند الابتداء في الأكل وبعد الفراغ منه من باب الشكر على النعمة)، ومن الكنائس ما هو مرسوم على جدرانها من الخارج صورة القديسين ليكونوا شهداء على الناس. والصلاة عند الروس بلا أرغن ولكنها قد تَتَخَلَّلها بعض تراتيل دينية.

وما أجمل كنائس بطرسبورغ وموسكو وكييف وما أفخمها. إن العقل ليحار في وصف بدائعها ومحاسنها وما اشْتَمَلَتْ عليه في الداخل من النفائس والذخائر الثمينة، ففي كنيسة القديس إسحق وفي كنيسة قازان في بطرسبورغ ترى محل إكليل الشوك على رأس المسيح إكليلًا من ماس بديع الصنع، وترى العذراء مرسومة وفي أناملها الخواتم الغالية وفي جيدها قلائد الدر والجواهر.

ولَعَمْر الحق لو نزل المسيح إلى الأرض، وشاهد ما عليه بعض رجال الدين من الترف والنعيم، وما يتَّشِحون به من الخز والديباج، وما يسكنونه من القصور الباذخة،

لأحالهم على مجلس تأديب وعادَ يَعِظ الناس من جديد موصيًا طغمة لأكليروس بالزهد والتقشف، أو على الأقل بالقناعة في المأكل والمشرب والبساطة في الملبس حتى في أيام الآحاد والمواسم والأعياد؛ لأن مملكته لَيْسَتْ من هذه الدنيا.

ولو رأى ما وَضَعُوهُ على صورته الكريمة من الحلي الباهرة، لخانه حُلْمُه المعهود وانْتَزَعَهَا بيده غضبان آسفًا، وَوَزَّعَهَا في الحال على الفقراء والمساكين ليكون لهم مِنْ ثَمَنِها رءوس أموال تنقذهم من مخالب الفقر والفاقة، حتى لا يعيشوا بؤساء ويموتوا تعساء، ولا ذنب لهم سوى أنهم وُلِدُوا فقراء.

أما إذا فَتَّشَ الكنائس بِنَفْسِه وعلى الأخص كنائس بطرسبورغ ورومة ومدريد ومالطة والقدس وبيت لحم مسقط رأسه، ووَقَفَ على ما تحويه خزائنها من الأعلاق المصوغة من الذهب الخالص والمُرَصَّعة بالجواهر واللآلئ، لهاله الأمر واستهوته أشجان، ولَأَمَرَ بالإفراج عنها فورًا مكتفيًا بالذخائر الأخرى، وأشار بِبَيْع الحجارة الكريمة وسك الذهب إلى نقود لتُتَدَاوَلَ بين الناس حتى يَقِلَّ الشقاء المستحْكِمَة حلقاته على الأرض، وتَخِفَّ وطأة الفقر في هذا العالم فيُشَتِّتَ شَمْل العدميين، وتَنْحَل عصابات الفوضويين، وينضمون إلى أحضان أمهم الكنيسة، ويعودون إلى حظيرتها، ويصبحون جميعًا من أبنائها الصادقين ومحبيها المخلصين.

وبعد هذا كله لا أدري لماذا يُحيطون بعض كنائس القوقاز مثل كنيسة باطوم وكنيسة تفليس بالمدافع التي غَنِمَها الروس في حروبهم مع الترك أو الجركس أو نحوهم، مع أن الكنائس لم تَكُنْ في الأصل إلا لنشر المحبة والسلام، ولم تُجْعَل مَتَاحِفَ لِتُذَكِّرَ الناس بسفك دماء الناس وضَرْبِهم بالمدفع وقَتْلِهِمْ بحد الحسام.

والتقويم المتبع في روسيا هو التقويم الجولياني العتيق، وهو المتبع أيضًا في رومانيا والصرب والجبل الأسود وبلغاريا أي في البلاد التي أهلها أرثوذكس مثل الروس، بل هو مِنْ ضِمْن التقاويم الجاري عليها العمل إلى الآن في نفس القسطنطينية وفي معظم البلاد التركية، ويَرْمُزُون له في الجرائد التي تَنْتَشِرُ فيها باللغة الفرنساوية بحرفي (V. S) أي Vieux Style (طرز عتيق) ويُسَمُّونه عندها هنا حسابًا شرقيًّا. أما التقويم المتبع عند الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا وغيرها من القارات فهو كما لا يخفى التقويم الجريجورياني.

والفرق بين الشهر الروسي والإفرنكي ثلاثة عشر يومًا، فإذا ضَمَمْتَ هذا العدد إلى تاريخ أي يوم في الشهر الإفرنكي كان عندك التاريخ الروسي، مثال ذلك أول سبتمبر

في روسيا يوافق ١٤ منه في أوروبا ومصر، وبالعكس اطرح عدد ١٣ من تاريخ الشهر الروسي يكون عندك التاريخ الإفرنكي.

وعدد العساكر الموجودة تحت السلاح في روسيا ثلاثة ملايين، وأما الاحتياطي فلا حد له. وإن كان العساكر البرية أقوياء أشداء، فالعساكر البحرية أَشَدُّ وأقوى.

ومن العساكر البرية نوع يقال له القوازق (وهي كلمة تتارية معناها قاطع الطريق) وهم نصارى ومسلمون وبوذيون، فالنصارى قوازق الدون والمسلمون قوازق الجراكسة وأورال وسيبيريا، وهؤلاء بعضهم نصارى، والبوذيون قوازق الموغول جهة بحيرة بيكال، وكل القوازق شجعان بواسل أولو بأس شديد وقوة، ولهم فروسية خارقة للعادة حتى إن الواحد منهم خصوصًا المسلمين ليركب (واقفًا) وسط ثلاثة خيول أو أربعة، ويمسك بأعنتها بيديه ويهجم بها كلها من قيام بسرعة كسرعة البرق الخاطف، وهو ثابت في مكانه لا يتحرك ولا يتزلزل كأنه الطود الراسخ، ومنهم من يَنُطُّ الحاجز والخندق بحصان واحد وينزل ويركب في الطريق مرارًا أثناء ركض الحصان كأنه عفريت من الجان.

والقوازق على العموم لا يهابون الموت ولا ينكصون أبدًا على الأعقاب، فإذا اعْتَرَضَهُمْ نهر في طريقهم خاضوه أو جَبَل صعدوه، وكلهم فرسان خيالة بارعون في الكر والفر، ويلبسون ملابس الجراكسة (جركسكا)، وأشهر أنواع القوازق قوازق الدون، وهو نهر طوله ٢٠٠٠ فرست يَمُرُّ في خمس حكومات من حكومات روسيا، ويَصُبُّ في بحر أزوف، وليس كله صالحًا للملاحة، وعلى بُعْد غير قليل من مصبه مدينة نوفوشركاسك عاصمة هؤلاء القوازق، وعدد سكانها ٥٥ ألف نفس، ورئيسهم يُسَمَّى بلسان الروس أتامان.

وضباط الجيش في البر والبحر، أكثرهم من أولي النعماء، تلوح على وجوههم علائم النجابة والعلم والذكاء، وملابسهم جميعًا جميلة وفاخرة.

والملابس الأهلية في روسيا فرتيكة فوق البنطلون وعليها حزام بسيط أو بشرابتين، وقد تكون الفرتيكة بيضاء أو ملونة مطرزة أو غير مطرزة، ومنهم من يلبس فوقها الجاكيتة، وللأهالي كاسكيت مخصوصة غير الكاسكيت المستعمل في أوروبا وكذلك الطلبة. ويتردد على لسان الروس غالبًا كلمة نيتشيفو (معهلش)، والشعب الروسي ساذج بسيط والعامة في غاية الانحطاط والهمجية بخلاف الخاصة، فإنهم بلغوا أرقى درجات التهذيب واستنارَتْ عقولهم بالمعارف العصرية، وساروا شوطًا بعيدًا في ميادين الحضارة والمدنية، والمرأة من الخاصة في غاية الرقي والتقدم.

ولوكاندة النوم في روسيا اسمها جوستيتسا، ومع ذلك فإن أغلب اللوكاندات الكبيرة مكتوب عليها اسمها باللغة الفرنساوية كما هو الحال في البلاد الأورُبَّاوية، ولوكاندة الأكل تسمى عندهم رستوران. وأجرة النوم في بعض الفنادق غالية جدًّا، فهي تَخْتَلِف من ثلاث روبلات إلى عشرة فما فوق.

ومن الغبن الفاحش أن بعض هذه الفنادق لا تكتفي بهذه الأجرة بل تُضِيف عليها أجرة الغطاء وملاآت الفرش وأكياس المخدات والفوط ونحو ذلك، فهي تمتص دَمَ النازل عندها روسيًّا كان أو أجنبيًّا.

ولقد زادت فنادق باطوم، روسية كانت أو أرمنية أو كورجية، الطين بلة والطنبور نغمة، فإنها عند تقديم الحساب تُضِيف على مجموع الأقلام قلمًا (للبقشيش) تُقَدِّر قيمته كما تراه، وتَجْعَل دَفْعَه إلزاميًّا، وعلى هذا المثال يكون الحال في المطاعم الكبيرة فيها.

والأكل في روسيا جَيِّد ولذيذ وأثمانه معتدلة اعتدال أثمان الأكل في غيرها، ولكن ذلك لا يكون إلا في الأكلة ذات الثمن المحدد، فقد يكون هذا الثمن أَقَلَّ من روبل أو روبلًا ونصف بحسب عدد الألوان التي يَتَناولها الشخص. أما إذا كان الأكل بالطبق (الا كارت) فاسْتَعِدَّ للبذل ولا تَبْخَلْ ولا تَلُومَنَّ بعد ذلك إلا نفسك، فقد يكون ثمن الصحن الواحد روبلًا أو روبلين.

ومقدمات الطعام عندهم كالسردين والبطارخ المكبوس والبطارخ الغض (الطازة) والأسماك الملحة المختلفة الأشكال والألوان والسلاطات المتنوعة، شيء يفوق الحصر ويحار الإنسان أثناء الأكل، أيكتفي بهذه الحوادق الجالبة للشهية أم يَجْمَع بينها وبيْن غَيْرِها من المآكل الأخرى.

ومن أطعمتهم الأهلية شوربة الكرنب ويسمونها بورش، وهم يتناولونها مع الكريمة ويأكلون معها فطائر صغيرة محشوة أو غير محشوة اسمها بيروجكي، ولهم شوربة أخرى تَقْرُب من البورش اسمها شي. ومن مأكولاتهم الأهلية أيضًا شوربة السمك، وهي على ثلاثة أنواع: أوخا وسيلنكا وأوكروشكا، وهذه الأخيرة لا تُؤْكَل إلا مُبَرَّدَة بقطع الثلج الصغيرة.

والمياه المعدنية التي تُشْرَب في روسيا تكاد تكون كلها من نفس البلد، وهي بورجوم ونارزان وإيسانتوك نمرة ٢٠، وقد يستغني الكثير من الروس عن خمر فرنسا وغيرها من الخمور الأجنبية بما يُصْنَع في بلادهم من الخمر الجيد كنبيذ القريم

ونبيذ بسارابيا، وفضلًا عن ذلك فإن لهم شامبانية مخصوصة تُصْنَع في مصانعهم، ولهم أيضًا شراب يتعاطَوْنَه قبل الأكل اسمه ڤودكا «عرقي» وهو نوعان: أبيض ناصع وضارب إلى الحُمْرة. وفي أغلب البلاد الروسية يُبَاع اللبن الرايب في زجاجات مسدودة مثل زجاجات الجازوزة ويُسَمُّونه كيفير وهو نافع ولذيذ.

والأدوية في روسيا لا تَخْرُج من الأجزخانات إلا إذا كانت ملتصقة بها ورقة جميلة الشكل، تحتوي على صورة طِبْق الأصل من تذكرة الطبيب الذي أَمَرَ بها وعلى اسمه.

وميزانية الروسيا ثلاثة مليارات روبل و٣٠٠ مليون روبل، أي أكثر من ٣٠٠ مليون جنيه، والحكومة مُحْتَكِرة القودكا ودَخْلُها منه وحده ٨٠٠ مليون روبل أي ٨٠ مليونًا من الجنيهات في السنة، ولكنه لدى نشوب الحرب الأرباوية صدر أَمْر قيصري بإبطال ذلك الاحتكار، وبمنع جميع المشروبات الروحية في روسيا كلها.

والحكومة تملك أكثر من نصف السكك الحديدية، وإيرادها من ذلك يبلغ ١٠٠ مليون روبل أي عشرة ملايين جنيه في السنة.

أما باقي سكك الحديد في روسيا فبِيَد الشركات، والوابورات الروسية نظيفة وحسنة الإدارة، وفيها كل معدات الراحة الموجودة في غيرها من قطارات أوروبا، ومقاعدها تُسْتَعمل بالنهار للجلوس وبالليل للنوم بتحويلها إلى أَسِرَّة، وهي تَنْهَب الأرض نَهْبًا وتطوي البِيد طَيًّا، وقَلَّ أن تخلو منها جهة من جهات الروسيا، فالسكك الحديدية ممتدة في طول البلاد وعرْضها امتدادًا عظيمًا، وكل مجموع خطوط منها يُسَمَّى باسم خاص، فخطوط القوقاز تُسَمَّى ترانسيكو كازيان، وخطوط طاقشند وسمرقند وبخارى ونحوها تُسَمَّى ترانسيكا سبيان، وخطوط سيبيريا تُسَمَّى ترانسيسيبريان، وهذه السكة الأخيرة تَبْتَدِئ الآن من بطرسبورغ وتَمُرُّ على موسكو، ثم تَخْتَرِق سيبيريا وغيرها من بلاد آسيا حتى تَصِلَ إلى فلاديفوستوك في الشرق الأقصى، والمسافة خمسة عشر يومًا. والقطارات في هذه السكة مِنْ أَفْخَر ما يكون وفيها كل وسائل الراحة والهناء حتى الكتبخانة والحمام.

ويحق لروسيا أن تَرْفَعَ رأسها وتتباهى على غيرها بسكة سيبيريا العظيمة، فهي لعمري مَفْخَرَة من مفاخرها، بل معجزة من معجزات الزمان، تَشْهَد للحكومة الروسية بالهمة العالية والاقتدار العجيب والسبق على الأقران في حلبة هذا الميدان.

والأجرة من بطرسبورغ إلى فلاديفوستوك ٣٣٧ روبلًا و٦٠ كوبك في الدرجة الأولى «نحو ٣٤ جنيهًا»، و٢٠٨ روبلًا و٤٥ كوبك في الدرجة الثانية «نحو ٢٢ جنيهًا».

ومن فلاديفوستوك يتفرع خط حديدي إلى بكين عاصمة الصين وآخر إلى يوكوهاما في بلاد اليابانيين، فهكذا هكذا تكون الهمم العالية في ربط أجزاء الأرض ببعضها وتقريب الأبعاد على المسافرين.

ومرتب القيصر في الشهر مليون روبل (١٠٠ ألف جنيه). وما من مزرعة عظيمة أو عمارة فخيمة مَرَرْتُ عليها أثناء طوافي في روسيا وسَأَلْتُ عنها إلا قِيلَ لي إنها مِلْك التاج، حتى ظَنَنْتُ — وبَعْضُ الظَّنِّ إِثْم — أن هذا التاج يَمْلِك نِصْف البلاد الروسية لنفسه خاصة. وفي الواقع فإن جلالة الإمبراطور نقولا الثاني الجالس الآن على عرش القياصرة أغنى الملوك والسلاطين، ولله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

العملة في روسيا كلها جيدة ولا زيف فيها، وهي تتركب من ذهب وفضة ونحاس وورَق، ولا يوجد بها الآن نيكل ولكنهم عَوَّلوا على إدخاله قريبًا فيها. فمن الذهب الجنيه ونصفه، ومن الفضة الروبل ونصفه وقطعة بعشرين كوبك وقطعة بخمسة عشر وقطعة بعشرة وقطعة بخمسة، ومن النحاس قطعة بخمس كوبك وقطعة بثلاثة وقطعة باثنين وكوبك واحد، ومن الورَق ورقة ذات ٥٠٠ روبل وورقة ذات ١٠٠ وورقة ذات ٥٠ وورقة ذات ٢٥ وورقة ذات ١٠ وورقة ذات ٥ وورقة ذات ٣. ويوجد روبل جديد من الفضة منقوشة عليه صورة القيصر الحالي وصورة ميخائيلوف أول قيصر من عائلة رومانوف، ولكنه نادر وعزيز.

والجنيه الموسكوفي يساوي ١٠ روبلات والروبل ١٠٠ كوبك (فرنكين و٦٧ سانتيما أو قطعة بعشرة مصر وشيء) والكوبك يساوي ملليمًا وكسورًا.

ومسلموا روسيا يُسَمُّون الروبل مانات والقطعة ذات العشرين كوبك عباس، فإذا اشتريت من أحدهم شيئًا وكان ثمنه مثلًا ٦٠ كوبك قال لك إن الثمن ثلاثة عباس.

ولا يمكن للسائح في هذه البلاد أن يعيش عيشة لائقة بأقل من عشرين روبلًا (جنيهين) في اليوم، خلاف مصاريف السفر والانتقال التي لا تقل في خط مثل الخط الذي اتبعناه عن ٦٠ جنيهًا برًّا وبحرًا في الدرجة الأولى. والسياحة في هذا الخط أي من سكندرية إلى القريم والقوقاز وروسيا الأصلية يمكن إتمامها في ثلاثة شهور ونصف من ١٥ مايو لآخِر أغسطس؛ لأن البحر الأسود في هذه المدة يكون هادئًا ولطيفًا، وأما بعدها فيَصْعُب السفر فيه لشدة اضطرابه وهيجانه. وللكريدي ليونيه ثلاثة فروع في روسيا؛ واحد في أودسا والثاني في موسكو والثالث في بطرسبورغ، وفي البلاد من المصارف الروسية المنتظمة شيء كثير، ومن أكبر شعراء الروس بوشكين، وُلِد في سنة ١٧٩٩

في بلدة اسمها ميخائيلوفسكي على بُعْد ٣٥ كيلومترًا من بطرسبورغ، وقد نُفِيَ مرتين إحداهما في بلدته هذه والأخرى في القريم، وقُتِلَ في سنة ١٨٣٧ في مبارزة بالقرب من بطرسبورغ بسبب غَيْرَتِه على زوجته وقَاتِلُه ضابط بلجيكي اسمه دانتيس، وكان جد بوشكين «عربيًّا» دخل في خدمة بطرس الأكبر فرقاه إلى رتبة ضابط، ولما تَوَسَّم فيه النجابة والذكاء بعث به إلى باريس لِيَتَعَلَّم فيها العلوم العسكرية، ولما عاد أَخَذَ يترقى في الجيش الروسي إلى أن وصل إلى رتبة جنرال. فلروسيا إذَنْ أن تُفَاخِر بالعرب، وأن تُحَافِظ على علاقات القربى بيننا وبينها وصِلات النسب.

ولبوشكين الآن تماثيل في بطرسبورغ وموسكو وأودسا، وفي هذه المدينة الأخيرة منزل نُقِشَ على بابه (هنا أقام بوشكين في سنة ١٨٢٣).

ومن كبار شعراء الروسيا ليرمونتوف، وكان ضابطًا في الجيش، وُلِدَ في سنة ١٨٤١ ونُفِيَ إلى القوقاز في بياتيجورسك إحدى مدن الحمامات، وفيها قُتِلَ هو الآخر في مبارزة سنة ١٨٤١، وقاتِلُه ضابط روسي اسمه مارتينوف، وسبب النفي ما كان معلومًا عنه من آرائه وأفكاره الحرة ونظمه لمرثية لصديقه بوشكين طَعَنَ فيها على بعض المقامات العالية. وسَبَب القتل أنه عَرَّضَ في أحد المجالس بأحد الضباط حتى أَضْحَكَ عليه النساء، فاستاء الضابط من ذلك واستشاط غضبًا، ورأى في نَفْسِه التعريض إهانة له، وطلب من ليرمونتوف أحد أمرين: إما الاعتذار في الحال، وإما المبارزة، فأبى ليرمونتوف قبول الأمر الأول ورَضِيَ بالثاني.

وكانت المبارزة وقتئذ جائزة في روسيا، أما الآن فهي ممنوعة إلا بين ضباط البرية والبحرية، ولكن على شَرْط رِضَا رؤسائهم بها وموافقتهم عليها.

ومن مشاهير كُتَّاب الروس جوجول، وقد مات من نحو ٥٠ سنة، ومن تآليفه كتاب الأرواح الميتة شَرَحَ فيه ما كانت عليه روسيا في الزمن الماضي شرحًا مستفيضًا، وكيف كان يَسْتَعْبِد الأشرافُ فيها الفلاحينَ المساكين ويَسُومُونَهُم الخسف والعذاب المهين، حتى إنهم كانوا يَعُدُّونهم كالسلع والمتاع فيبيعونهم مع الأرض بَيْع المواشي والأنعام، إلى أن جاء القيصر الرحيم أبو الفلاح حقيقةً الإمبراطور إسكندر الثاني فَحَرَّرَهُم من رِقِّ العبودية، وأزال ما كان من الفوارق بينهم وبين باقي الرعية، ومن الأسف العظيم أن هذا القيصر الذي خَدَمَ الإنسانية أعْظَمَ خِدْمَة قَتَلَه النهلست شَرَّ قتلة، وهو الذي بُنِيَت على دَمِه في المحل الذي قُتِلَ فيه ببطرسبورغ كنيسة القيامة، الفائقة في الحسن والجمال.

ومِنْ فُحُول الكتاب دوستوييفسكي، وقد مات من عشرين سنة، ومن أشهر مصنَّفاته كتاب الجريمة والعقاب، وربما فاق لومبروزو في بعض مباحثه وفصوله، وأَمَلُنَا في حضرة الفاضل قبعين أفندي الذي عني بتعريب كتاب الفيلسوف تولستوي في حكم النبي ﷺ أنْ يُشَمِّر عن ساعد الجد ويُرِينَا هِمَّتَه، فيترجم كتاب الجريمة والعقاب خدمةً للناطقين بالضاد، خصوصًا المشتغلين بالقضاء والمحاماة، كما خَدَمَ الأمة بترجمة كتاب الحكم المستطاب. وفي روسيا الآن كاتب كبير اسمه ماكسيم جوركي.

وعدد سكان الروسيا ١٦٠ مليونًا منهم ١١٠ ملايين روسي أرثوذكسي و٢١ مليون مسلم، (على الأصح) ١٠ منهم في روسية أوروبا والباقي في روسية آسيا، و١١ مليونًا كاثوليك، و٦ مليون بروتستانت و١٠ مليون من البوذيين في منغوليا و٦ مليون يهود.

وأغلب السكان في مقاطعتي كورلاند وليفونيا من الألمان رعايا روسيا، وبِيَدِهِم قِسْم عظيم من التجارة. وأهْل فنلندا متقدمون جدًّا في الزراعة، وكان لهم أثناء زيارتي لبلادهم في سياحتي الأولى في روسيا عملة مخصوصة غير العملة الروسية، وهم أهل إباء وأنفة، وكلهم بروتستانت، وكذلك أهل بولونيا أخلاقهم مشابهة لأخلاق أهل فنلندا وكلهم كاثوليك.

وإذا تَعَلَّم الروس اللغة الفرنساوية أتقَنوها وتَكَلَّموا بها بطلاقة لسان وحُسْن بيان، وزيادة على أن أسماء الدكاكين في روسيا تُكْتَب باللغة الروسية ومعها اللغة الفرنساوية أو الألمانية، فإنَّ ما يُبَاع فيها مرسوم على واجهتها. وللروس رَقْص مخصوص اسمه رَقْص قوزاق وهو شبيه بالرقص الحربي.

وقد اصطَلَحوا في روسيا على تسمية حكومات خاركوف وبولتافا وكييف وسيرينجوف بروسيا الصغيرة، وموسكو بروسيا الوسطى، وأودسا والقريم بروسيا الجديدة، وباقي الحكومات بروسيا الكبيرة.

وثمن الباسبور في روسيا لِمَنْ يُسَافِر من رعاياها إلى الخارج ١٨ روبلًا، ومع ذلك لا يُعْمَل به إلا لستة أشهر. أما الذين يسافرون إلى الداخل فيُعْطَى لهم الباسبور مجانًا. وكل روسي يَتَغَيَّب عن روسيا يَدْفَع عند عودته لها رسمًا للباسبور ٢٠ روبلًا عن كل سنة، إلا إذا كان تَغَيُّبه لطلب العلم أو لمصلحة تعود بالخير على بلاده.

وما اجتمَعْتَ بيهودي إلا ورأَيْتَهُ ناقمًا على الروس ويشكو بثه وحزنه إلى الله مما يلاقيه من الاضطهاد وسوء المعاملة في هاتيك البلاد. فإن الحكومة الروسية سَنَّتْ قانونًا حَظَرَتْ فيه على اليهودي غير المولود في بطرسبورغ الإقامة بها إلا إذا كان

طبيبًا أو محاميًا، وحَرَمَت اليهود من التوطف في الوظائف الملكية والعسكرية، وجَعَلَتْ عدد التلامذة اليهود في مدارس الحكومة محددًا، فلا يُقْبَل منهم أكثر من خمسة في المائة بشرط أن يكونوا على مصاريفهم. انظر كيف أن الروس يحْجُرون على الحرية الشخصية ويَحْرِمون فريقًا من الناس من حقوقهم الطبيعية خصوصًا في هذا العصر، عصر العرفان والمدنية لا عصر الخشونة والهمجية.

ولكنا أثناء طبع هذا الكتاب عَلِمْنَا أن جلالة القيصر نقولا الثاني عندما تَحَقَّقَ له صِدْق رعاياه اليهود وإخلاصهم وتفانيهم في خدمته واستبسالُهم في الحرب الأورُبَّاوية، مَنَحَهُم الحقوق المدنية وسَاوَى بينهم وبين غَيْرِهم من الرعية، فكأنه نَظَرَ إلى ما طَلَبْنَاه لهم في آخر هذه الرحلة كما سيأتي، وأنالَنَا بُغْيَتَنَا وحقَّقَ أمنيتنا، فلجلالته على هذه المنحة الجليلة وعلى أبطال المسكراث من روسيا الشكر الجزيل والثناء الجميل منا ومن عموم الإنسانية.

والدستور في الروسيا (برُمَّته) دستور روسي وعمره الآن سبع سنين — وهنا استطراد لا بأس به — ذلك أني أقترح على من يعنيه الأمر في مصر أن يَأْمُرَ حالًا بكتابة لوحتين كبيرتين بالخط الثلث الجميل، إحداهما يكتب فيها الآية الآتية: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، وتُوضَعُ في قاعة الجمعية التشريعية جهة الأعضاء، والثانية يُكْتَب فيها هذه الآية الأخرى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، وتُوضَع جهة الرئيس، وأن تكون كتابة هاتين اللوحتين على مثال اليفط الموجودة بمحكمة مصر، بَعْضُها في قاعة الجلسة وبَعْضُها في أودة الرئاسة المكتوبة فيها الآيات الآتية: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾، ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

وكلها بخط الخطاطين الشهيرين حسن أفندي سري وعلي أفندي لطفي. وهذه الآيات جميعها سواء الخاصة بالمحاكم أو بالشورى ليس فيها ما يَمَسُّ عواطف أحد من إخواننا النصارى ولا إخواننا اليهود؛ لأنها لا تَتَعَلَّق بأمور تعبدية بل بمسائل عمرانية تَهُمُّ الجميع، ومِنْ شأنها أن تُذَكِّر القضاة دائمًا بالعدل مع الناس كافة على اختلاف أجناسهم وأديانهم، وتجعلهم لا يحيدون قَيْدَ أنملة عن الحق حتى مع عدوهم ومن يبغضونه عملًا بقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾، ومِنْ شأنها كذلك أن تُذَكِّر نُوَّابَنا ورئيسهم بالمشاورة والمذاكرة في كل أمر من أمورهم حقيرًا كان أو جليلًا. فلا يَضَعُ أحد منهم كمامة على فمه ويلازم السكوت، ولا يَغُرَّنَّه الغَرور

ولا تُزَعْزِعْهُ الأباطيل والأراجيف، ولا الوشايات والسعايات، ولا السخائم والنمائم، ولا الدسائس والمكايد، ولا الكذب والاختلاق، ولا البشاشة والزلفى ولا ضدهما، ولا الدعوة إلى المآدب والأفراح والولائم، ولا الإقبال والإدبار، ولا أكثر من ذلك، بَلْ يَضْرِب بكل هذه الأمور العرَضية عرض الحائط ويَجْعَل لنفسه رأيًا خاصًّا في كل مسألة، ولا يُحْجِم عن إبدائه ولو بعبارة عامية بكل صراحة وحرية غير هَيَّاب ولا وَجِل، وأن لا يَجْرِيَ أبدًا وراء رأي الغير، وأن لا يقول إلا ما يَعْتَقِدُه حقًّا وصوابًا، وأن لا يُقَرِّر إلا ما يراه نافعًا لصالح البلد وإلا كان لا معنى للجمعية ولا للاجتماع، ومن أخص واجبات الجرائد نَشْر المناقشات والمداولات حتى تَعْرِف الأمة قِيمَة كل نائب من نُوَّابها ومقدار اهتمامه بالشئون العمومية.

وفي إستامبول توجد يُفَط في المحاكم التجارية وفي بعض مخازن التجارة مكتوب فيها هذا الأثر الشريف: «الكاسب حبيب الله». وللإنكليز شعار قديم وهو: «ربِّي وحقِّي» يُكْتَب في بعض جرائدهم باللغة الفرنساوية لا باللغة الإنكليزية.

ولنعد الآن إلى ما نحن بصدده؛ لأننا نعترف بأننا خَرَجْنَا عن الموضوع، وطالما خَفَّفَ الاعتراف الاقتراف.

الروسيا على العموم بلاد جميلة ولكن أجملها القريم والقوقاز، فهما الدرة اليتيمة في تاج القياصرة، ولا عَجَبَ فإن المسلمين مَلَكُوا أجمل بقاع الأرض وأَخْصَبها، ولو كانوا ساسوا مَمَالِكَهم بالعدل والحكمة، وعاملوا الجميع معاملة واحدة، وأحسنوا الإدارة، وبحثوا في كل أمر يَعُود بالخير على الرعايا، وأخذوا من التمدن الحديث أحسنه، وضبطوا الأعمال صغيرها وكبيرها، ولم يُفَرِّطوا في أي شيء من حقوقهم، وكافأوا المحسن وجازوا المسيء، وسدوا آذانهم عن سماع الوشايات والأكاذيب كما فَعَلَ صلاح الدين، وطبَّقوا القوانين من غير محاباة ولا مراعاة لاستقام أَمْرُهُم وحفظوا مُلْكَهُمْ، وما جَرُأَ أحد على أن يَنْظُرَ إليه بعين الطمع أو يَمُدَّ له يد السوء، فما سقطت الممالكُ إلا من إهمال أَهْلِها وظُلْمِهِم وانغماس أفرادها في حمأة من الرذائل والشهوات، وتَرْك الحبل على الغارب وعدم الاستعداد الحربي. إذ من المعلوم أنه لأجل المحافظة على كل مَمْلَكة يجب على أهلها أن لا يستسلموا للصدف والمقادير، وأن لا يُعَوِّلوا على غيرهم ولا يعتمدوا إلا على أنفسهم، وأن لا يَغْتَرُّوا بزخارف الكلام، وأن يُعِدُّوا لمن يعتدي عليهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل كما هو الحال في نفس مَمَالك أوروبا لحذرها وتَخَوُّفها على الدوام من بعضها، وكما يقضي به قانون تَنَازُع البقاء على ظَهْر هذه الغبراء التي وُطِئَتْ فيها

الآن الذمة بالأقدام، وأصبَحَت العهود والمواثيق حِبْرًا على وَرَق، وصار شعار القوم في هذه الأيام خِلَافًا لما يَأْمُر به كل دين: اللؤم والغدر والخيانة كما شاهَدَ ذلك الخاص والعامُّ؛ أين الصدق أيها الناس أين الشرف؟! أين الإنسانية؟! أين القدوة الحسنة؟! هل هكذا تكون نتيجة التربية؟! ماذا جرى للدنيا؟! أَنُزِعَت الشفقة والرحمة من القلوب، أم ماتت الضمائر؟! ما هذه الدروس التي تُلْقَى الآن على العالم؟ أَلِإصْلَاحِه هي أم لإفساده؟ إنَّ كل جهد رجال التربية أَصْبَحَ عبثًا، وكل أتعابهم في تهذيب رجال الغد وتعويدهم في الصغر على محبة الصدق والعدل والحق والرأفة بجميع بني الإنسان من أي جنس وأي دين كان ضائعة سدى.

أيرضى أحد من ذوي القلوب بتلك الفظائع الجهنمية التي حَصَلَتْ في عصر العلم والمدنية في الحروب البلقانية، أم يَصِحُّ أن يَسْكُتَ القوم عنها ويغمضوا الجفون عليها، أم لم يكن لهم أولاد — أليست لهم نساء وفلذات أكباد — أليس فيهم الشيخ الفاني؟ أإلى هذا الحد يجهلون أن الكل إنسان وأن هذا الإنسان مهما كان يجب الرفق به ومعاملته على الأقل ولو ببعض الشفقة التي يعامل بها الحيوان.

ما لقينا من غدر دنيا فلا كا نت ولا كان أَخْذُها والعطاء

ولقد رَسَمَ القرآن للمسلمين تلك الخطط القويمة خطط الاستعداد للعدو وغيرها من الخطط الحكيمة التي تَضْمَن لهم سعادة الدارين، ولكنهم اختلفوا أو قَصَّرُوا وأَهْمَلوا، واشتغلوا بالقشر دون اللب، وقدموا العَرَض على الجوهر، فكان ما كان وحَقَّتْ عليهم أحكام الزمان.

ومسلمو روسيا من تتار وجركس وداغستان وغيرهم هم من غير مبالغة أَشَدُّ مسلمي الأرض تمسكًا بدينهم وتَعَلُّقًا بأهدابه وأكثرهم غيرة عليه ومحافظة على سننه وآدابه، وهم حاصلون الآن على حقوقهم السياسية والمدنية، ولهم في روسيا المكانة الثانية من بين ١٢٨ عنصرًا تَتَأَلَّف منهم الدولة الروسية، وكلهم أمم حربية اشتهروا بالشجاعة والرماية والفروسية، وطالما خَدَمُوا روسيا الخدمات الجليلة، وبرهنوا مرارًا في الحروب على ولائهم وشدة إخلاصهم، وأظهروا بسالة عجيبة، حتى إن الحكومة رَقَّت الكثيرين منهم إلى رُتَب القواد في الجيش الروسي، ومنهم ضباط في فرقة فرسان الحرس القيصري الخاص لما امتازوا به من الولاء التام والأمانة والإخلاص والإقدام.

وفي حرب الروسيا مع اليابان سُلِّمَت قيادة فرقة مؤلفة من ستة آلاف عسكري كلهم روس نصارى أورتودكس إلى جنرال مسلم.

ومن المسلمين جيل يقال له القارغيز والباشكير يقيمون في جبال أورال في أوروبا وآسيا وعددهم ستة ملايين.

والروس يُسَمُّون العالِم الكبير من علماء المسلمين أخون والصغير منلا. وأكثر المسلمين الروسيين مشهورون بإقراء الضيف، حتى كأنهم المعنيون بقول القائل:

يا ضيفنا لو جِئْتَنَا لَوَجَدْتَنَا نحن الضيوف وأنت رب المنزل

وعندما يزور أمير بخارى القيصر يستقبله بكل إعظام وإجلال وإكرام، وتتبادل بينهما خطب الولاء.

ورجال الإصلاح المسلمون ولا سيما الشيوخ والتجار، مهتمون كل الاهتمام بنشر التعليم بَيْن الأفراد، وتنوير الأذهان بالعلوم الحديثة، وبالجملة فإن مسلمي روسيا ناهضون الآن نهضة حقيقية تعود عليهم بالعز والفخر مدى الدهر، وهم لا يَقْصِرون هَمَّهُم على تعليم البنين؛ بل يَعْتَنُون أيضًا بتربية البنات، ولا يكتفون بتعليم أبنائهم في بلادهم بل يُرْسِلون كثيرًا منهم إلى الأستانة ومكة والمدينة ومصر.

وعندنا مجموعة رسوم تمثل مسلمي القوقاز والتتار والكورج وبعض نصارى الروس بملابسهم الأهلية، بعثنا بها إلى إدارة المؤيد لِيُطْلِع عليها من يشاء، وكذلك أرسلنا إليها جريدة كورجية وجريدتين تنشران في القوقاز باللغة التركية، إحداهما تُطْبَع في تفليس واسمها منلا نصر الدين، وقد صُوِّر فيها جلالة السلطان محمد رشاد الخامس بصفة شخص، فإن أَحْنَت السنون ظَهْرَه وأَثْقَلَت الحوادث والكوارث كَاهِلَه لابسًا أطمارًا بالية مرقعة وناقلًا أمتعته من الأستانة إلى الأناضول، وأمامه إمبراطور الألمان مُسَلِّمًا عليه سلامًا عسكريًّا، ولكن السلطان ولله الحمد باق في القسطنطينية وسَيَبْقَى بها إن شاء الله هو وآل بيته الكرام إلى الأبد.

وفي هذه الجريدة رسموا عجميًّا يَضْرِب بالبلطة امرأة إفرنكية لينفروا أوروبا من العجم ويوغروا صَدْرَهَا عليهم، ولكني عَلِمْتُ أن كل هذا كذب وبهتان، والثانية تطبع في باكو واسمها شلالة وفيها صورة الشاعر التركي الكبير عبد الحق حامد بك، وصورة تُمَثِّل مقتل الشهيد العظيم محمود شوكت باشا، ورسم منابع البترول في باكو.

وهنا يَجْدُر بي أن أَتَكَلَّم على ثلاثة أشياء لو لَمْ تكن في الروسيا لكانت كلها محاسن، وهي الباسبور واضطهاد اليهود وعداوة الروس للدولة العثمانية.

فإذا ألغت الروسيا الباسبور وجعلت الدخول والخروج في بلادها حُرًّا تَشَبُّهًا بغيرها من الأمم المتمدنة، قَصَدَهَا الناس مِن كُلِّ فج وعاد عليها ذلك بكثير من الفوائد الاقتصادية والمنافع الأدبية، ولا خوف عليها من أشرار الأجانب؛ لأن لديها من القوة ما يَكْفِي لردع كل من يَجْرُأ على انتهاك حرمة القانون أو يُخِلُّ بالنظام العام.

وإذا كَفَّتْ عن اضطهاد اليهود ومَنَحَتْهُم الحقوق الممنوحة لغيرهم من العناصر الروسية، وتركَتْهُمْ أحرارًا يَرُوحون ويَغْدُون كما يشاءون، ولم تَحْجُر على حريتهم الشخصية، وجَعَلَتْ شعارها دائمًا الدين لله والوطن للجميع، نفعوها وأخلصوا لها وتحدثوا بفضلها عليهم وشكروا مِنَّتَهَا وتباهَوْا بالانتساب إليها وافتخروا برعويتها، خصوصًا وأنهم لا يعرفون لهم وطنًا غير روسيا، وقد مَضَتْ عليهم فيها القرون الطويلة وهم لا يتكلمون لغة غير لغتها، فهم رعاياها وفي ذمتها، ويَحِقُّ لهم جميعًا أن يتمتعوا في الداخل والخارج بحمايتها.

وإذا صافت الروسيا الدولة العثمانية وتَرَكَتْهَا تعيش كما تُحِبُّ هي أن تعيش، وكَفَّتْ عن خَلْق المشاكل لها ووَضَعَتْ حدًّا لمطامعها واكتَفَتْ بمُلْكها العظيم، وبما هي فيه من رغد ونعيم، ومَدَّتْ يدها إلى الأتراك وصافحتهم وسالمتهم، تناسوا الماضي؛ لأنهم شعب حسن النية سليم الطوية، وعادت هذه المصافاة على الطرفين بفوائد لا تُحْصَى ومزايا لا تُسْتَقْصَى.

ألم تكن فرنسا وإنكلترا عدوتين قديمتين — ألم يُحَوِّل الملك إدوارد بحنكته وحذقه ومهارته تلك العداوة الشديدة إلى صداقة متينة، مع اختلاف أخلاق الأُمَّتَيْن وتَبَايُن الدين فيهما، فهؤلاء بروتستانت وأولئك كاثوليك، وكل مذهب منهما يَنْظُر إلى الآخر بغير العين التي يَنْظُر بها لنفسه — ألم تَتَحَالف إنجلترا مع اليابان، وهذه دولة وَثَنِيَّة وتلك مسيحية.

فمتى يوجد في الروسيا رَجُل نبيل القصد كريم السجايا، يَحْذُو حَذْو الملك إدوارد، ويَرْجِع عن تلك التقاليد البالية العتيقة، ويُحَوِّل عداوة تركيا إلى صداقة، حتى يستريح العالم من تلك القلاقل التي مَجَّتْهَا الأذواق ومَلَّتْ من سماعها الآذان.

وما بكثير أَلْف خِلٍّ وصاحب وإنَّ عدوًّا واحدًا لَكثير

فإذا غيرت الروسيا خُطَطَها القديمة وانتَهَجَتْ خُطَطًا جديدة معقولة بأن أَلْغَت الباسبور وَعَامَلَت اليهود بالرفق واللين وصَادَقَت العثمانيين، تَحَسَّنَتْ أسعارها وارتفع منارها وطاب في الخافقين ذِكْرُهَا، وفاح في كل مكان شذاها وأحبها الناس جميعًا، وبَلَغَتْ في المجد منتهاها.

وإذا أحب الله يومًا دولة ألقى عليها محبة للناس

ومدارس روسيا زاهية زاهرة بالعلوم والآداب، والعربجية الروس يلبسون كلهم رداء واسع الأردان أشبه شيء بالجبة والقفطان.

وفي أثناء السير في روسيا بالقطار لا يقع نظرك إلا على مروج خضراء تَسُرُّ الخواطر وتُقِرُّ الأنظار، على أنه مَهْمَا كانت الروسيا وعظمتها وأوروبا وبهجتها ومدنيتها، فليس في نظر المصري بلاد أجمل من مصر، ورَحِمَ الله مصطفى باشا كامل القائل:

بلادي بلادي لك جسمي وفؤادي لك حبي ووِدادي.
لك قلمي ومدادي لك عقلي ورشادي لك صحوي ورقادي.
لك قربي وبعادي فأنت البلاد المحبوبة يقينًا وليس في الدنيا بلاد أجمل ولا أفضل منك في ملتي واعتقادي.

ولكن كل هذا لا يَمْنَع من السفر إلى بلاد الغير للنظر والاعتبار والاستفادة والاختبار.

سافِرْ تَجِدْ عِوَضًا عَمَّن تفارقه واتْعَبْ فإن لذيذ العيش في التعب
واعلم بأن وقوف الماء يُفْسِدُهُ إن ساح طاب وإن لم يَجْرِ لَمْ يَطِبِ
الأُسْد لولا فراق الغاب ما افترست والسهم لولا فراق القوس لَمْ يُصِبِ
الشمس لو وَقَفَتْ في الفلك دائمة تملها الناس من عجم ومن عَرَبِ
التبر كالترب ملقى في أماكنه والعود في أرضه نوع من الحَطَبِ
فإن تَغَرَّبَ هذا عَزَّ مطلبه وإن تغرب هذا عَزَّ كالذَّهَبِ

ولقد نَشَرَتْ جريدة المؤيد الغراء هذه الرحلة بأكملها في تسعة أعداد منها في أوائل سنة ١٩١٤، وجاء بعد ذلك في العدد الصادر منها في ٤ مارس من السنة المذكورة ما يأتي تحت عنوان:

تحية الإعجاب إلى المؤرخ رشاد بك

لقد كان من حظ المؤيد أن يكون على الدوام مَعْرضًا يَعْرِض فيه حضرة العالِم المفضال والرحالة الكبير والمؤرخ الشهير محمود بك رشاد رئيس محكمة مصر الأهلية سابقًا نفائسه، وخزانة موثوقًا بها لِرَصْد ذخائره العلمية ورحلاته إلى داني البلاد وقاصيها لمحض خدمة الأمم الشرقية. ولسنا الآن في مَقام تعدادِ ما أفادَتْ رحلات هذا المؤرخ من تهيئة النفوس المصرية على الخصوص لاستطلاع ما أوجب رقي الأمم وسبب انخفاضها، فإن رحلتيه الأخيرتين اللتين نَشَرَهُما المؤيد عن الدولة العلية وروسيا حَرَّكَتَا في النفوس لواعج الأشجان على زمن كان فيه السبق للمسلمين في جَوْب الأمصار واقتحام الأخطار لاقتناص مدنية الأمم وصقلها بصاقل من عوائد وأخلاق العرب، مما دعا إلى تفوقهم في زمن قصير على غيرهم في كل شيء.

ولقد تَنَبَّهَ حضرة الغيور الفاضل مصطفى بك نجيب وكيل النائب العمومي إلى أن رجلًا عظيمًا مثل محمود بك رشاد يجب أن يُشَجَّعَ على عمله العظيم بكلمة شُكْر، فأَرْسَلَ إلينا بالرسالة الآتية مُوَجَّهَة إلى مؤرخنا الرحَّالة بالنيابة عن الأمة، فرأينا أن ننشرها مع الشكر وهذا نصها:

> يَسُرُّ كل وطني أن يرى أفرادًا من مواطنيه يقومون لإعلاء شَرَفِ وَطَنِهِمْ ويَجِدُّونَ في تجديد معالم فَخْرِهِمْ؛ لأنه قد مَضَى علينا زَمَن أَهْمَلْنَا فيه كل شيء فَخَرَّبْنَا فيه هذا البناء المشيد الذي تَرَكَهُ لنا أسلافنا العظام، وطَمَسْنَا بتهاوننا آثار هؤلاء الأجداد الفخام الذين اجتهدوا في البحث والتنقيب والكد في مناكب الأرض والجد وراء الرزق والسعي لازدياد درجة العمران، ويحق لنا إذَنْ أن نَفْتَخِرَ برَحَّالَتِنَا الفاضل الذي جدد عصر ابن بطوطة في الإسلام، ألا وهو العالم القانوني محمود بك رشاد، فإنه فضلًا عن المتاعب الجمة والمصاعب الشديدة التي يَلْقَاها في السفر، فإنه لا يبخل بالمال ولا بالوقت للتجول في البلاد المتنوعة الأرجاء الحاوية لِمُخْتَلِف الأجناس، فإن كتاباته عن السياحة المتنوعة فضلًا عن أنها مفيدة في ذاتها من حيث الوصف والوقوف على حالة البلدان، ففيها من العظات الكبيرة المدهشة التي تأخذ بِلُبِّ الإنسان لما فيها من الحكمة البالغة

والملحوظات الكاملة خصوصًا عندما يصف داء قومنا وما آلت إليه حكومات الشرق مع الأسف من الفساد والاستبداد حتى وَصَلَتْ لهذه الدرجة التعيسة، مع أن الطبيعة لم تَضِنَّ على الشرق بأحسن العوامل، فقد نَبَغَ في هذه الأراضي كبار الرجال من أنبياء ومرسلين وفلاسفة عظام تتفاخر بهم للآن الآنسانية، فَحَقَّ لنا أمام هذا الرحالة الكبير أن نَفْتَخِرَ بأفكاره، ووَجَبَ علينا أن نَأْخُذَ بنصحه الخالص؛ لأَنَّ مثل هذا الهُمَام كمثل الطبيب الماهر أمام جِسْم في خطر هائل. فأرى من الواجب على أُمَّتِنَا أن تُشَجِّع أبناءها المخلصين وتُعَضِّدُهُم؛ لأن أحسن وسيلة للإكثار من المفكرين المجتهدين أن تُسَاعِد الأمة في تَنْشِيطهم بكل الوسائل، وأَنْتَهِزُ هذه الفرصة لِأُعَرِّض أننا في حاجة عظيمة لمثل هذه الدروس التي أَلْقَاها علينا هذا الكاتب العظيم؛ لأنها مملوءة بما نسميه بعلم الفلسفة الاجتماعية، فإذا قام كلٌّ بعملٍ نافع مفيد كهذا، كلٌّ على حسب استعداده وقوَّتِهِ، لتغيرت حالتنا الاجتماعية وطرَقْنَا طريق الحياة الصحيحة. أكثرَ الله فينا رجالًا مخلصين قادرين عاملين كصاحب هذه الأسفار المفيدة.

مصطفى نجيب

وكيل النائب العمومي لدى المحاكم المختلطة

ثم نَشَرَتْ تلك الجريدة في عددها الصادر في ٧ مارس سنة ١٩١٤ الاقتراح الآتي:

اقتراح لسعادة الرحَّالة الشهير والكاتب القدير رشاد بك

راقني جدًّا ما يخُطُّه بيمينه ذلك الكاتب النحرير والمؤرخ العظيم رشاد بك، حيث ينتقي لأبحاثه ألطف العبارات مع الرقة والدقة وسلامة التعبير من الركاكة والحشو، حتى لا يَشْعر الإنسان بثقلها على النفس، فضلًا عما يُدْخِله فيها من المُلَح الأدبية الرائقة الشائقة التي لا تَخْرج عن الموضوع الذي يُنَمِّقه بَرَاعَة بحال من الأحوال.

إني أتذكر جيدًا أن لسعادة الكاتب سياحات عديدة في أنحاء العالم غير سياحته الأخيرة في الروسيا. كَتَبَ عنها كثيرًا بقلمه السيال على صفحات جريدة المؤيد الغراء التي خصها بهذا الانعطاف الجميل.

أريد أن أَقْتَرِحَ على سعادة المدقق الباحث اقتراحًا أرجو أن يصادف ارتياحًا وقبولًا من نفسه، وذلك بِجَمْع ما كَتَبَهُ عن سياحاته السنوية المتوالية في كتاب واحد يَرْجِع إليه عشاق الأدب والتاريخ، مع إدخال رَسْم وصُوَر تلك البلاد التي حصل عليها ليكون هذا السفر جامعًا لطيفًا حاويًا ما لذ وطاب. إنه إن فعل ذلك، ولا أُخَالُهُ إلا كذلك، فقد أَضَافَ إلى حسناته حسنة لا يَمْحُوها توالي الليالي والأيام.

وأن يَجْعَل اشتراكه سهلًا حتى يستطيع كل إنسان اقتناءه بحيث لا يزيد عن «روبل»، إن هذا الثمن قليل جدًّا بالنسبة لعِظَم الكِتَاب وللمصاريف والمشقات الهائلة التي صادفها في طريقه. ولكن ماذا نَعْمَل والأزمة ضاربة أطنابها عندنا في الصعيد الذي يرجو أن تُشَرِّفَه لتَكْتُبَ عنه كلمتك فيه. ولعلك تفعل والسلام.

فؤاد أحمد مهنا
بقنا

وجاء في جريدة مصر الغراء في عددها الصادر في ٢٤ فبراير سنة ١٩١٤ ما يأتي:

عالِم مسلم فاضل يعظ المسيحيين

لِسعادة العالم الباحث المدقق محمود بك رشاد، رئيس محكمة مصر الأهلية سابقًا، وَلَع شديد بمتابعة الأسفار، واستقصاء أحوال الأمصار، والوقوف على أخلاق وعادات الناس أينما وُجِدُوا، ونَشْر ذلك بين أبناء هذه الديار تنويرًا لأذهانهم وسدًّا لما يحتاجون إليه من الاطلاع على أخبار البشر ومعرفة أخلاقهم وعاداتهم أينما وُجِدُوا.

ولذلك نراه يُمْضِي وقتًا طويلًا كُلَّ سنة في زيارة الجهات التي لم يَكُن زارها من قبل، ويكتب عنها المقالات الضافية الملآنة بكل ما هو لذيذ ومفيد من هذا القبيل.

ولقد زار سعادته مُدَّةَ الصيف الماضي المملكة الروسية وساح في أنحائها الواسعة الأطراف، وكتب عنها عدة مقالات في المؤيد الأغر. ومن جملة ما كتبه عنها أمس العبارة الآتية عما تَطَرَّفَ فيه رجال الدين المسيحي من شحن الكنائس والمعابد بالذهب والفضة والحجارة الكريمة، مع أنه كان يجب أن تُتْرَكَ بحالة البساطة المتناهية التي عاش عليها السيد المسيح وعَلَّمَ بها. وما أبلغ صدور هذا الوعظ المفيد من عالِم مسلم فاضل مَثَّلَه لأولئك الرؤساء المسيحيين الذين تَخَطَّوا حدود دينهم بمراحل وهم لا يشعرون.

(ثم نَقَلَت الجريدة ما كتبه صاحب الرحلة عن تلك الكنائس — راجع [ما سبق ذكره في هذا الفصل].)